تصوُّرات
البحر الأبيض المتوسط

المتوسّط التركي

أدهم ألديم
فريده تشيتشيكوغلو



THALASSA

GIFTS 2006

Dr Michael Lange

Cairo

تصوّرات
البحر الأبيض المتوسط

المتوسّط التركي

أدهم ألديم

فريده تشيتشيكوغلو

THALASSA

تصورات البحر الأبيض المتوسط

برنامج أبحاث بإشراف البيت المتوسطي لعلوم الإنسان

منسق البرنامج : فرانسوا سيينو
سكرتيرة التحرير : جيزيل سايماندي
منسقة النسخة العربية : ماري تريز زهر

رعى البرنامج كل من :
الاتحاد الأوروبي
وزارة الخارجية الفرنسية
المؤسسة الأوروبية للثقافة
مؤسسة رينيه سايدو للعالم المتوسطي
منطقة بروفانس آلب كوت دازور
مقاطعة بوش دي رون

شكر خاص لمؤسسة الملك عبد العزيز في الدار البيضاء
وللجامعة اللبنانية في بيروت لاستقبالهما

الغلاف :
خارطة محمد الإدريسي وهو جغرافي عربي توفي سنة ١١٦٦ .

تم نشر هذه المجموعة أولا باللغة الفرنسية في
دار ميزونوف إي لاروز Maisonneuve & Larose
أما الترجمة إلى العربية فهي بالتعاون مع
مؤسسة كونراد أديناور وتحت إشرافها

Konrad
-Adenauer-
Stiftung

تــصــوّرات
البـحـر الأبـيـض المـتــوسط

بإشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور مايرينغ

المتوسّط التركي

أدهم ألديم

فريده تشيتشيكوغلو

THALASSA

أدهم ألديم / فريده تشيتشيكوغلو

المتوسط التركي – بيروت : منشورات تالاسا ٢٠٠٣

Printed in Lebanon

DYNAMIC GRAPHIC
ISBN: 9953-422-45-1

أدهم ألديم

تركيا والمتوسّط : أهو سعيٌ عقيم ؟

ترجمه عن الفرنسية بسام حجّار

حَريٌّ بنا أن نبدأ بإثباتِ حالةٍ بسيط : على الرغم من أن مياه المتوسّط تغمر آلافَ الكيلومترات من شواطئها، فإنّ تركيا لا تشعر البتّة بأنها متوسطية. أو، في الأقلّ، يغيب المتوسّط، إلى حدٍّ بعيد، عن الرؤى والتصوّرات التي يصوغها هذا البلد لذاته. ويلحظ هذا الغياب أيضاً على مستوى الخطاب السياسي كما على مستوى التماهيات الثقافية، سواء كانت جمعية ولاشعورية، أم، على الضدّ من ذلك، فردية ومبتكرة. فما من رجوعٍ إلى هوية متوسطية، وما من معنى لميراثٍ متوسطي، ما من ماضٍ أو حاضر أو مستقبل متوسطي، قد تشوب الخطوط العريضة للإدراكات الهُويّة التركية والتصوّرات التي تصحبها.

ومع ذلك، ليس ما يعوزنا هو اختلافات الإدراك. فالأرجح أنّ عددَ الصياغات الهُويّة لتركيا يماثل عدد الأتراك أنفسهم. صياغات تتعارض وتتضافر ويستكمل بعضها بعضاً، كما لو أنها جمعت على شبكةِ سجلاّتٍ لا آخرَ لها عملياً : وعلى هذا النحو قد نصادفَ فيما بينها عدداً لا بأس به من الفئات – نزعة الانتماء التركي، الإسلام، آسيا الوسطى، الشرق الأوسط، النزعة العلمانية، الأناضول، النزعة الكمالية، النزعة الهلينية، البلقان، الوثنية، الصوفية، التقليد، والنزعة الحداثية...– بيسرٍ وعلانية لن يجدا تبريراً لهما إلاّ في الغاياتِ الإيديولوجية «لمخترعي» الهوّيات الوطنية. ففي بلد يبحث عن هوية، لا يعقل أن تكون البدائل هي القاصرة. البدائل التي تزعم سدّ الفراغ الهائل المتولّد عن الطابع الانتقالي لمرحلةِ هويات متعدّدة وما قبل حديثة عبر السعي لبناء هوية واحدة وحديثة من شأنها أن تكون، في وقتٍ معاً، خميرة الأمّة التركية ورباطها. وهو سعيٌ لم يتمكّن البتّة من الذهاب إلى أبعد من ابتكار أسطورة إتنية لغوية كان مصيرها الإخفاق في ظلّ غيابِ السعي لإيجادِ مفهومٍ للمواطنة مبنيٍّ على صيغة سياسية توافقية. وفي ظلّ نضجٍ أيديولوجي وسياسي لم يكن قادراً على

استدراكِ تنمية اجتماعية اقتصادية كانت، برغم عدم انتظامها، تسير، مع ذلك، قُدُماً، لم تكن مستهجنة، على الإطلاق، حماسة بعض المجموعات في تبنّي التصورات المختلفة للواقع الاجتماعي. فبما أنّ هناكَ يكمن جوهر الشرعية التي تمهّد الطريق إلى السلطة، وبما أنّ النظام كان يرفضُ تبنيَ مبدأ تمثيل متعدّد، كان المطلوب إذاً الاستيلاء على مجال الشرعية ذاك وتملّكه، وتغليب أحد التصوّرات على التصورات الأخرى كافّة.

الأرجح أنّ هنا يكمن تفسير حقيقةِ أن التصورات التركية – مهما كانت مشاربها – هي، في الأغلب، ذات طابعٍ هُويّ أكثر مما هي وظيفية. ذلك أن التصوّرات المقترحة ليست على الإطلاق بوادر انفتاحٍ على عالم خارجي، على هذا القدر أو ذاك من الاتساع، ورؤى انخراطٍ واندماجٍ، بل هي، في الأغلب، أداة انطواءٍ على الذات سيفرض نموذجاً هُويّاً وغايته، المعلنة في معظم الأحيان، مجانسة الأمّة. هكذا نرى النموذج «الإسلاموي» متجهاً نحو إعادة تعريفٍ لنزعة الانتماء التركي – ما يدعى «المحصلة التركية الاسلامية» – أكثر مما يتجه نحو رؤيةٍ إسلاموية جامعة يمكن أن تنخرط تركيا إسلامية في إطارها. كذلك الأمر بالنسبة لخطاب الانخراط الأوروبي الذي يدور، في الأغلب، حول إشكالية تغريب المجتمع التركي التي لا تنضب، وحول تبني مبادىء الحداثة التي من شأن خلاص الأمة أن يكون مرتبطاً بها – وعلى الأخص، في معظم الأحيان، حول إعادة صياغة العقيدة الكمالية ؛ وعبثاً نبحث فيها عن رؤية انخراطٍ وعن تفكير جِدّي حول أوروبا بما يتجاوز التبعات المباشرة على تركيا.

فهل نعجب، في هذه الحال، لغياب المتوسّط عن مختلف التصوّرات التركية ؟ وإذا سلّمنا جدلاً بأنّ هذه التصورات لا تعدو كونها، في الجوهر، تصوراتٍ هُويّة وتستمدّ شرعيتها من مزيجٍ من الانتهازية الإيديولوجية والاختلاق التاريخي، يسهل علينا عندئذٍ أن نرى بأنّ المتوسّط لا يتمتّع إلاّ بالقليل القليل من الجاذبية في

أعين الأمّة التركية. والحقيقة أن التاريخ والجغرافيا السياسية والثقافة قد تضافرت جميعها لدحضٍ وتكذيب أيّ مرجعية أو انتماء متوسطيين. وإذا قِيضَ للمتوسّط أحياناً أن يظهر بضعَ مرّاتٍ على نحوٍ موجزٍ وخاطف، فإنّما يكون ذلك، كما نراه نحن، على نحوٍ سطحيّ، ولنصرة قضية أوسع طموحاً في معظم الأحيان، وخصوصاً، أشدّ اتساماً بالطابعِ التركيّ.

تاريخياً، يمكن القول إنّ ذاكرة انتماء متوسطي تركيٍ – أو انتماء تركي متوسّطي – ترقى إلى زمن سحيق. ذلك أنّ مآثر القراصنة البربر (نسبة إلى بربر شمالي إفريقيا) والبحارة العثمانيين في القرن السادس عشر – وطبعاً كلّهم أتراك عندما تكون الغاية هي إعادة صوغ تاريخٍ وطني – وحصار «نيس»، وفتح أوترانت، وتعطّل بحارة بربروس في مرفأ طولون خلال فصل الشتاء، أو نظام المحميات الشمال إفريقية، هي تواريخ شديدة الحضور في تاريخ المقدّسات التركية من أبطالٍ وأمجادٍ سحيقة. غير أن ما يغيب باستمرار عن هذه الصورة هو المتوسّط نفسه الذي وإن سمّيَ أحياناً «بالبحيرة التركية»، يبقى محتجباً في غيابه وبعده وعدم تمامه. في الكتب المدرسية تشكّل المغامرة العثمانية في المتوسّط جزءاً من البنية السردية خصوصاً، لكنّها نادراً ما تشكّل جزءاً من التصورات الخرائطية. أمّا التأطير المتوسّطي الذي يظهر – في أحيان نادرة – في حالة إمبراطوريات الرومان وجوستنيانس أو الصليبيين، أبداً لا يطبّق عملياً على امتداد الأقاليم العثمانية. بحيث أنّ المغرب الذي لا يتردّد أحد في ضمّه، شكلياً، إلى الإمبراطورية، سيبقى، تلقائياً، خارجَ الخريطة، لأنّ لا محلّ له في غلبة التصورات المنصبّة، غالباً، على الأناضول والبلقان[١]. من الواضح إذاً أنّ المتوسّط ليس هاجساً مركزيا في نتاج المؤرخين الأتراك وأنه، خصوصاً، ليس في حدّ ذاته عنصراً مقوّماً في إعادة صوغ الماضي. وإذا ما طالعنا غالباً تكرارٌ لذكر «الأسلاف مقتحمي أبواب البندقية»، فإنّ حصاراً لمالطا أو غزواً للجزائر لا يثيران المشاعر الحماسية نفسها. والواقع أن علّة ذلك

على قدرٍ من البساطة : الأتراك لا يرون قيمة حقيقية إلاّ للعناصر التي تقرّبهم من الغرب، سواء كانت نزاعات أو اتفاقيات. ففي آخر الأمر، لا تحلم تركيا، منذ أكثر من مئةٍ وخمسين عاماً، إلاّ بالغرب، ولا تحلف إلاّ بحياته. أمّا المتوسّط فلن يغدو مثاراً للاهتمام إلاّ بمقدار ما يمكن ربطه بمصيرٍ غربي. حتّى بيري ريس (Pirî Reis) ذلك البحار العثماني الذي قد يضاهي دليل السواحل المتوسطية – كتاب البحريّة – الذي ألّفه الكثير مما أنتجه الغربيون في هذا المجال، حتّى هو يدين بشهرته لخارطة الأطلسي وبلاد أميركا التي تقرّبه من كولومبس الذائع الصيت. إذ ذاك يغدو ازدراء الضفاف الجنوبية للمتوسّط قابلاً للفهم على نحوٍ أفضل. يغدو مسألة حظوة : فالمتوسّط لا يستحقّ عناء الاعتبار إلاّ عندما يكون أوروبياً. أمّا في الجنوب والشرق، فهو تاريخ آخر قد يكون، في الصياغة التاريخية التركية، أيّ شيء إلاّ متوسطياً.

الواقع أنّ وجهة النظر هذه هي التي تتبدّى من خلال أحد المؤلفات الأولى التي كرّست، خصيصاً، للمتوسّط التركي. فقد جعل منه رشيد صَفوت أتابينن، العضو المؤسّس في جمعية التاريخ التركية، ومنشىء «نادي السياحة والسيارات» في تركيا، ورئيس الرابطة الثقافية الفرنسية التركية، الموضوعة المركزية في سلسلةٍ من المحاضرات جمعها، عام ١٩٥٦، في كتابٍ حملَ عنواناً معبّراً : الأتراك الغربيون والمتوسّط [٢]. إحدى هذه المحاضرات، خصوصاً، وقد أُلقيت في باريس عام ١٩٥٠، سرعان ما تتخذ، في معرض «رجوعها إلى الإسهامات التركية في الأمن والحضارة المتوسطيين»، صيغة المرافعة الصريحة الداعية إلى اعترافٍ بحضورٍ «تركي» في المتوسّط عبر العصور، وعلى الأخصّ، بحضورٍ إيجابي قد أسهم في توطيد السلام والاستقرار في أوروبا في مواجهة الأخطار الوافدة مما وراء المتوسّط :

«في الجنوب، ما زال الأتراك المماليك في مصر وسوريا – حيث أقاموا أرقى الحضارات الإسلامية آنذاك – يمثّلون الحاجز

> المنيع الذي يذود عن ضفاف المتوسط. وإذا انهار هذا السدّ، فلن يتمكّن أحدٌ من الحيلولة دون تدفّق جحافل المغول الذين من شأنهم، كما جرى في بلدان أوروبا الأخرى، أن يطمروا ويبيدوا كلّ أثرٍ من الحضارات القديمة. كان الأتراك الذين سبقَ لهم أن استقروا في الحوض الشرقي للمتوسّط، يقفون، وللمرّة الأولى، على نحوٍ نظاميّ، كحرّاسٍ لهذا البحر وكمدافعين عن أهل ضفافه. وسواء نالوا التفهّمَ أم لا، وسواء قُدّرت جهودهم أم لا، سوف يستمرون لثمانية قرون في أداء هذا الدور الشاقّ والمجيد، والعقوق على الأغلب.»(٣)

في معرض استرساله في توضيح فكرة السدّ التركي المانع، يسعى أتابينن، في ما يلي، إلى كسبِ تعاطف الحضور عبر تذكيره بالدور الذي لعبته فرنسا والإمبراطورية العثمانية سوياً، منذ القرن السادس عشر، للدفاع عن المتوسّط :

> «إلى عهد استقرار الأتراك العثمانيين في البوسفور تعود انتفاضة وتحرّر شعوب أوروبا الغربية الخاضعة، إلى ذلك الحين، للهيمنات البيزنطية والأسبانية والنمسوية، ثمّ الإنكليزية. وبدءاً بالقرن الخامس عشر لم تعد السيطرة على المتوسّط حكراً على جنوى حيناً والبندقية حيناً آخر، بل انتقلت إلى الفرنسيين والأتراك الذين بدّلوا الوجهة على نحوٍ حاسم.»(٤)

> «بلغت العلاقات بين فرنسا وتركيا ذروةَ فعاليتها في القرن السادس عشر. إذ يغدو المتوسّط بحيرةً فرنسية تركية. ومن وهران إلى الإسكندرية إلى أثينا وفي إيستريا، تكتسي ضفاف هذا البحر بالنصب التي تذكّر بالقوة العثمانية. وما زالت الشواهد المتألقة عليها قائمةً امتداداً حتّى سبليت في دالماتيا، وفي جزيرة جربة، في شرق تونس.»(٥)

كان ينبغي الاعتراف إذاً بالإسهام التركي في إرساء الهوية والاستقرار المتوسطيين، وهو الإسهام الذي يشكّل، إلى جانب إسهامات الفرنسيين والإيطاليين، الأساس الثقافي للمنطقة(٦). ففي ذلك تكمن مآثر الأتراك في المتوسّط والتي تتيح لهم أن يتمايزوا

عن «بعض الشعوب الأقلية ذات التقاليد الفوضوية»[٧] التي، لشدّة نكرانها هذه الحسنات، تجرّأت على التصدّي للسلم العثماني بالتواطؤ المشمول برعاية القوى العظمى التي لم تحسن، كما ينبغي، تقدير أهمية ومنفعة الوجود التركي في المنطقة[٨]. وسرعان ما تتجاوز الرسالة حدود التحليل التاريخي، لتغدو رسالةً ذات مغزى راهنٍ، وتستحيل مطالبةً بالقبول بتركيا كجزءٍ من المجتمع الغربي :

> «نحن الإيطاليين والأتراك والفرنسيين والأسبان لنا إذاً مصلحةٌ مشتركة في الدفاعِ عن هذه الحضارة المتوسطية الرائعة، والتي أسهمنا بها، جميعاً والتي تبقى في أساسِ الأمن الأوروبي والتوازن العالمي.»[٩]

> «(أرجو) ألاّ تحفظوا من هذا العرض الوجيز سوى الأفكار الرئيسية، قيمة موقع الأتراك في العالم، ودورهم التاريخي في الحضارة المتوسّطية والحاجّة الملحّة إلى التعاون الفرنسي الإيطالي التركي من أجل الحفاظ على السلام والاستقرار في الشرق الأدنى.»[١٠]

هكذا ندرك أنّ المتوسّط ليس في نظر المؤلف سوى ذريعة مفيدة لنصرةِ قضية التحاق تركيا بالعالم الغربي. فمن خلال عملية تنقيل، بارعة من دون شكّ ولا تخلو من المغالطات التاريخية، عبر العصور، جُعِلَت الجحافل المغولية وروسيا القيصرية رمزاً لاستمرار التهديد الخارجي المحدقِ بأوروبا والعالم المتمدّن الذي من شأن الاتحاد السوفياتي أن يشكّل آخر حلقاته، بينما، في المقابل، ينصّب الأتراك – مماليكَ وسلاجقة وعثمانيين وتركيا حديثة – أنفسهم مدافعينَ عن هذا العالم الحرّ بالذات. فكيف لا نقيم صلةً بين سيناريو ظروف الخمسينات هذا، وبين انضمام تركيا، خصوصاً، إلى حلفِ شمال الأطلسي عام ١٩٥٤ ؟ يجعل أتابينن نفسه إذاً ناطقاً بلسان حركة تنادي بانخراطِ سياسي وعسكري لبلاده في المعسكر الغربي، في غمرةِ تطبيقات عقيدة ترومان وخطّة مارشال. وعليه لقد اختزل المتوسّط فجأةً إلى دورٍ ثانوي

واعتبرَ كياناً مشوّهاً إلى حدّ بعيد بفعل الحاجة إلى ضمّهِ إلى استقرار سياسيّ لا يتأتّى إلاّ من شكلٍ هيمنيّ. ولهذا يسجّل لأسطورة أتابينن المتوسطية أنها تستبعد من «الحضارة» المتوسطية عناصر البلبلة الفاعلة أمثال اليونان، المشاغب الأبديّ[١١]، أو عناصر أخرى صغرى - بلقانية وشمال إفريقية - والتي لا يمكن أن تكتسب معنىً إلاّ من خلال إلحاقها بثقافةٍ أرقى، فرنسية أو إيطالية أو، طبعاً، تركية[١٢].

إذاً، يستعيد أتابينن، بمقدارٍ كبير، الرؤية الغالبة في النظراتِ التركية لمتوسّط يستمدّ قيمته من الروابط مع الغرب. وهذه سمة تبدو لنا جوهرية في التصورات التركية لهذا العالم المتوسطي. إذ تكشف لنا تجربة لافتة خاضها مدرّس للمرحلة الثانوية في معهدٍ للغة الفرنسية، إلى أي مدى ينال التشوّه من النظرة إلى المتوسط في ذهن الفتيان الأتراك وفي معارفهم[١٣]. فعندما يطلب منهم رسم خارطة العالم، سوف يرسم هؤلاء موقع المتوسط على نحوٍ واضحٍ وجلي في ٧٥ في المئة من الحالات، غير أنهم لن يسمّوه إلاّ في ثلاث حالاتٍ من أصل عشر. وهي نسبة أدنى من النسبة التي تسجّل في حالة البحر الأسود الذي يتمّ تصوّره في ٨٥ في المئة من الحالات وتجري تسميته في أربعٍ من أصل عشر. ما يدفعنا إلى الاستنتاج بأنّ البحر الأسود يمثّل، في الثقافة المتوسطة التركية، واقعاً ملموساً أكثر من المتوسط. غير أنّ الأوفر دلالة، بالتأكيد، هو أنّ المتوسط يشتمل، عندما يتمّ تصوّره، على تبايناتٍ هائلة بين ضفتيه الشمالية والجنوبية. ففيما يبدو الساحل الشمالي باستمرار مرسوماً بدقّةٍ نسبياً، يبقى الساحل الجنوبي مرسوماً على نحوٍ تقريبي. هكذا نجد أن شبه الجزيرتين الإيبيرية واليونانية، وعلى نحوٍ أوضح من سابقتيها، الجزمة الإيطالية، غالباً ما يسهل التعرّف إليها، كما دائما نجد، مذكورة بدقّة، قائمة بالدول الرئيسية المحاذية - أسبانيا، فرنسا، إيطاليا، اليونان. أمّا الضفاف الجنوبية فتتخذ، على الضدّ من ذلك، شكل أرضٍ مجهولة، محدّدة بخطّ مستقيمٍ ومجملة باقتضابٍ تحت اسم «إفريقيا»، أو

يدوّن عليها، على نحوٍ عشوائي ومن دون ترتيب تبسلسلي، عدد من أسماء البلدان – اسمين أو ثلاثة من أسماء البلدان المحاذية الخمسة – وقد يرد ضمنها أحياناً ذكرُ نيجيريا أو زيمبابوي أو غانا أو كينيا أو حتّى القدس ! من الواضح أن المتوسط الجنوبي يتطابق في تصوّرهم مع إفريقيا، كما تتطابق الضفاف الشمالية مع أوروبا، الأمر الذي يمكن استنتاجه من ميلهم إلى ضمّ النمسا وسويسرا أو ألمانيا إلى هذه البلدان، وإن كانت أخطاؤهم في هذا المجال أقلّ من أخطائهم بشأن إفريقيا.

هذا جهل، بالتأكيد، لكنه أيضاً انعكاس متبقٍّ من واقعٍ جيوسياسي وثقافي تشكّل عبر القرون على حسابِ أي نظرةٍ متوسطية جامعة. ذلك أنه بانقضاء أمجاد القرن السادس عشر، راح المتوسط يفقد بالكثير من حظواته في أعين العثمانيين. فبعد أن اضطروا إلى الحدّ من النشاط التوسعي الذي كانوا شرعوا به في مجاله، سرعان ما وجدوا أنفسهم عاجزين عن ضمانِ أمن مجالهم البحري الخاص. ولعلّ انتزاع جزيرة كريت من أيدي البنادقة الذي استغرق الأسطول العثماني ربع قرنٍ من الزمن، هو خير دليل على تدهور الوجود العثماني في البحار. أمّا على صعيد التجارة البحرية، فلن يمضي وقت طويل حتّى يرى القباطنة العثمانيون وسفنهم وقد استبدلوا، خصوصاً على خطوط الملاحة الطويلة، بالهولنديين والإنكليز، وخصوصاً، الفرنسيين. ثمّ جاءت الهزائم النكراء التي حلّت بهم في أواخر القرن الثامن عشر على يد الروس لتنجز، نهائياً، ذلك الطلاق بين الدولة العثمانية والبحر. لذلك، وحتّى بروز حلم السلطان عبد العزيز الذي سينجح في امتلاك ثالث أسطول في العالم – وسيكون مصيره التآكل والصدأ، بأية حال، في مياه القرن الذهبي الراكدة – سوف تجد الإمبراطورية العثمانية نفسها مضطرة إلى الارتهان لدعمِ القوى البحرية الأجنبية – الروسية والإنكليزية والفرنسية، أو حتّى المصرية – من أجل الدفاع عن نفسها ومن أجل بقائها. أي أنّ الإمبراطورية العثمانية التي تضاءلت قواها العسكرية منذ القرن السابع عشر، باتت تعاني

تدهوراً متزايداً في قواها البحرية، فإذا بها وقد جعِلَت في مصاف قوة قارية (برية) في عالم يشهدُ تنافساً على غزو البحار. في أواخر القرن التاسع عشر، لم يكن باستطاعة الموسوعي العثماني – الألباني – شمس الدين سامي فراشري إلاّ أن يلاحظ الطابع الهشّ للوجود العثماني في المتوسط والتدهور السريع الذي شهده هذا الوجود في تلك الحقبة القصيرة :

«(...) إذا أمكن، لبعض الوقت، وبفضل جهود فاتحين للبحار أمثال خير الدين ريس (بربروس) ومراد ريس، وقوع القسم الأكبر (من المتوسّط) تحت السيطرة العثمانية، وامتدّت الأراضي العثمانية إلى ما يزيد عن نصف السواحل المتوسطية، فإنّ تراجع التجارة لدى العثمانيين قد أدّى فيما بعد إلى انتقال التجارة المتوسطية إلى أيدي الإيطاليين واليونانيين والفرنسيين والإنكليز الذين لم تكن لديهم أية صلات جغرافية بهذا البحر.»[١٤]

ولكن بصرف النظر عن الانكفاء الاقتصادي والتجاري العثماني، لن يلبث البحر، وخاصة المتوسط، أن يغدو عقبةً، لا بل جالباً للهزيمة. لقد كان هذا البحر، طوال القرن التاسع عشر، ساحةَ للاندحار العثماني، من الاستقلال اليوناني إلى خسارة الجزائر، ومن احتلال قبرص ومصر إلى التخلّي الفعلي عن جزيرة كريت. وقد تفاقمت ظاهرة الاندحار هذه في مطلع القرن العشرين عندما سقطت، الواحدة تلو الأخرى، مناطق الشمال الليبي وجزر بحر إيجه. وبذلك تكون معركة الدردنيل واقعةً ترمز إلى هذا الاندحار النهائي باتجاه اليابسة : فهناك كانت الإمبراطورية، متحصّنةً في خنادقها الأخيرة، تخوض آخر معاركها ضدّ غزاةٍ أقوياء قادمين من المتوسّط.

وإذا كان لهذا الانكماش أن يولّد كلّ أشكال الصدمات النفسية، فإنه، بأية حال، لم يولّد ذاكرةً ووعياً متوسطيين ، كما أنه لم يولّد مشاعر انضمامية كان من شأنها أن تطلقَ رؤىً، ولو نوستالجية، باتجاه المتوسط. ذلك أنّ هذا الانقباض تمّ، في قسطٍ وافرٍ منه، من

دون ألم، من دون مكابداتٍ فعلية. ويبدو مثل هذا الأمر أكثر بداهةً عندما نقارن هذه الخسائر بتلك التي وقعت في الأقاليم البلقانية للإمبراطورية، والتي غالباً ما كانت تعاشُ على أنها عملية بتر قاسية وموجعة. تدفّق المهاجرين المستمرّ – ومعظمهم من المسلمين – القادمين من الأقاليم التي جرى الانكفاء عنها في الروميلية والبلقان أو من الأقاليم القوقازية التي سيطر عليها الروس، وبقاء أعدادٍ من المسلمين و/أو الناطقين بالتركية في البلقان – اليونان، بلغاريا، يوغوسلافيا السابقة، ألبانيا – كلّ هذا قد أسهم في استمرار – لا بل في خلقِ – روابط عاطفية وهُوّية ممتدةً في طول هذه المنطقة وعرضها. فلن يكون من العسير، إذاً، أن نعثر في تركيا الحالية على تصورات بلقانية وروميلية أو قوقازية مفرطة في حيويتها يغذيها باستمرار واقعٌ ومتخيّل ثقافيٌ متجددان على الدوام. ولم يتضمّن الانكفاء المتوسطي إلاّ واقعةً وحيدة كانت شبيهة بالصدمات البلقانية، وهي واقعة نزوح السكان المسلمين عن كريت. ومع أنّه كان نزوحاً مؤلماً كسواه في أكثر من وجه، إلاّ أن أثره كان أخفّ وطأةً بكثير، ولو من حيث العدد القليل، نسبياً، من النازحين الذي أسفر عنه. والواقع أن نازحي جزيرة كريت لم يحملوا رؤيةً للمتوسط في متاعهم العاطفي والإيديولوجي بقدر ما حملوا حقداً على اليونان كان لا بدّ أن يمتزج بالمناخ العام السائد في فترة ما بعد الحرب.

لنذكر، فضلاً عن ذلك، أنّ هذا الأفول المتمادي للمتوسط لم يكن، بالفعل، حكراً على الإمبراطورية العثمانية. فإذا كان صحيحاً أن الإمبراطورية تفقد، أكثر فأكثر، الصلة ببيئتها البحرية، فالصحيح أيضاً هو أن المتوسط بأسره كان يشهد، منذ أواخر القرن السادس عشر، عملية تهميشٍ بطيئة ولكنها حثيثة. لا حاجة بنا هنا إلى معاودة سرد ما بات مشهوراً في التاريخ ؛ وقد نكتفي بالقول إنّ اكتشاف العالم الجديد وبروز الاقتصادات الأطلسية الذي نجم عنه، قد قلّص إلى حدّ بعيد حصّة ومركزية المتوسط اللتين كان يحتفظ بهما، حتّى ذلك التاريخ، في الاقتصاد العالمي. كانت تلك ظاهرة

طاولت مباشرة الاقتصادات القديمة – المدن الإيطالية، الإمبراطورية العثمانية – التي أضْعِفَت على نحوٍ خطير، فيما كان باستطاعة أخرى، هي على اتصال بالعالمين – وفرنسا خير مثال على ذلك – أن تعوّض الخسائر النسبية التي تُمنى بها من جهة بأرباح تجنيها من الجهة الأخرى. لا بل ربّما أمكننا القول إنّه إذا تمكنت فرنسا، في القرنين التاسع عشر والعشرين، من تكوين رؤية وصوغ فكرة متوسطيتين – استعماريتين في جوهرهما – فإنما ذلك أساساً بسبب عجزها عن السعي في مجالٍ أبعد منه. غير أنه بصرف النظر عن مسألة التوازنات الاقتصادية البحتة، لقد أسفرت هذه التغيرات عن انخفاض في مرتبة المتوسط الثقافية والسياسية أسهم بدوره، إلى حد بعيد، في فقدان الاهتمام بهذا العالم وبما كان يمثّله في نظر العثمانيين. فإثر قرونٍ من المجاورة المتوسطية المشحونة بالصلات البالغة التنوع، كانت الأنظار العثمانية في القرن التاسع عشر منصبّة على اتجاه آخر، متطلعةً، فيما وراء المتوسط، باتجاه إنكلترا أو ألمانيا، وطبعاً، على نحوٍ موارب، باتجاه روسيا التي تمثّل تهديداً. كان نظامُ المرجعيات المتوسطية، الحاضر بشدّة والمؤثّر بقوة حتّى ذلك الوقت، يسقط، على صورة ذلك البحر الذي أحيل تقريباً إلى مرتبة الفضول إزاء القديم وإزاء المعروضات المتحفية. وبادرت إنكلترا إلى جعل سلوكها مثالاً على هذا الصعيد : إذ جعلت من هذه الطريق المسدودة المتوسطية نقطة عبور، وصلة وصلٍ بين ممتلكاتها الأطلسية والهندية. وبذلك بات دور الإمبراطورية العثمانية في هذا الترسيم الجديد للمتوسط، يقتصر على مهمّة مكلفة وعقوقة، مفادها السعي لاعتراض التقدّم الروسي باتجاه البحار الحارة. كما بات المتوسّط، ومن أكثر من وجه، عبئاً على الإمبراطورية الهرمة.

لم تأتِ حرب الاستقلال التركية وما تبعها من قيام الدولة الكمالية إلاّ لترسيخ، عبر إضفاء طابع القداسة عليه، مسارِ الانكفاء الذي تلازمَ مع نهاية الإمبراطورية. فمن خلال إرسائها سياسة البقاء على المحافظة على الميراث الأناضولي الضئيل الذي ورثته،

كانت الجمهورية الفتية تضع في طليعةِ مهامها بناء أمة تركية على أنقاض الإمبراطورية العثمانية.كان تبادل السكان بين اليونان وتركيا – وهو عنصر جوهري في التطهير الإتني الذي طالما سعى الطرفان إليه – ينجز المراحل الأخيرة من محو آثار كوسموبوليتية الإقليم الأناضولي. فقد أدى رحيل أعداد كبيرة من العنصر اليوناني، بخاصّة، إلى إفراغ ضفاف بحر إيجه من القسم الأغلب من سكانه. ومعهم تبدّدت ذاكرة بأكملها، معرفةٌ بأكملها، وحياة بأكملها مرتبطة بالبحر. فبعد أن فقدت أقاليمها المتوسطية، كانت تركيا تفقد أيضاً ما تبقّى لها من سكانها المتوسطيين الذين حلّ محلّهم آخرون مقتلعون، وغرباء، بمعظمهم، عن البحر وعن ثقافته.

على المستوى الإيديولوجي، كانت تركيا تعيش هذا الانكفاء نفسه عبر إعادة صوغ هويتها وعبر تدعيم سيطرتها على أقاليمها الأناضولية. وكان الأمر، في نظر نظام الحكم الكمالي، يتعلّق، أولاً، بقطع الجسور مع الماضي العثماني، سواء في بعده الإسلامي أو في بعده الإمبريالي الكوسموبوليتي الذي كان مفروضاً عليه، كما يتعلّق بالشروع في سيرورة تحديث من شأنها أن تعيد الأمة التركية إلى مصاف الأمم المتمدنة. وفي عصر كانت شرعية الدول الأمم فيه تقاس بالتماسك الإتني واللغوي والثقافي للسكان، كما تقاس بوجود تراث تاريخي «وطني»، تبنّت تركيا الجديدة قواعد اللعبة : فعملت على مجانسة سكانها، وتلاعبت بالإحصاءات، وطهّرت لغتها من العناصر والإضافات الأجنبية، كما سعت جاهدةً لبناء ثقافة وطنية والترويج لها. لا بل ذهبت إلى أبعد من ذلك، فاخترعت لنفسها تاريخاً بإمكانها أن تتملكه ناهلةً من الماضي ما قبل الإسلامي لشعوبِ التُركِ. ما أتاح للأمة الناشئة أن تنشىء لها ماضياً من شأنه أن يضاهي، من حيث القِدَم، جذور أوروبا، تلك التي لطالما استبعدت، عبر العصور كلّها، الأتراكَ وثقافتهم.

لم تلبث هذه الأحلام الطورانية أن أفضت إلى أكثر النظريات

هذياناً حول الأصول التركية. فقد شهدت تركيا آنذاك، أي في ثلاثينات القرن العشرين، احتداماً فعلياً ومزايداتٍ في إطلاق مثل هذه النظريات : إذ غدت كلّ حضارة لا يزعم الغرب انتسابه إليها، نهباً للتتريك المتمادي. الحضارات الأناضولية، وحضارات ما بين النهرين، وحتّى الحضارات الأميرندية، أصبحت، على نحو الافتراض، تركية، وراح علماء «الجمعية التركية للتاريخ»، مدعومين بأعمال «الجمعية التركية للغة»، الشقيقة، يسعون، عبر التاريخ الإتني، وأنتروبولوجيا الأديان، واللسانيات، إلى البرهان على وجود روابط بين الأمة التركية وهذه الحضارات القديمة.

لم يكن المتوسط طرفاً في هذه التركيبات النظرية. فقد كان، برغم كلّ شيء، مجالاً خاصّاً بأوروبا التي تتبنّى انتماءها إلى يونانيته ولاتينيته، ولا تسمح، في أبعد تقدير، بأكثر من إسهامٍ ساميّ يمتدّ حتّى الإمبراطوريات العربية. صحيحٌ أنّ الإيتروشيين – ذوي الأصول المجهولة، ويمكن، تالياً، أن يكونوا أتراكاً – لم ينجوا من محاولات التتريك التي بذلها المنظرون من مدوّني التاريخ التركي[١٥]، غير أنّ هذا المسعى لم يؤدِّ فعلاً إلى استرداد الحضارة المتوسطية من قبلهم. وسوف يستند أتابينن، هو أيضاً، في مؤلفه المذكور سابقاً، إلى هذه النظريات، مستعرضاً حججه وفق الخطّة المعتمدة من قبله، والتي بتنا نعرفها جيداً، وهي المتمثلة بإيراد شواهد من مؤلفين غربيين :

«لكنّ أول ظهورٍ لشعوب من العرق أو الحضارة التركيين في الغرب وفي المتوسط، يعود إلى ما قبل ذلك العصر. لقد برهن مومسن (Mommsen) وكارا ديفو (Carra de Vaux) اللذان جرت محاولات لدحض أطروحتهما من دون حجج إيجابية مناقضة، على أنّ الإيتروشيين الذين تمكن مقارنة فنهم بفنّ السومريين (كما وصفه وولي – Wooley)، قد تمكّنوا، باتباعهم مساراً شبيهاً على طول ضفّة الدانوب، من دخول إيطاليا عبر الشمال ثمّ نزلوا حتّى ضفاف البحر التيراني، منذ القرن العشرين أو الخامس عشر قبل الميلاد، حاملين معهم حضارة ذات أصول أورالية آلتائية

(نسبة إلى الأورال وإلى آلتاي)، تطوّرت بفعل تأثيراتٍ مصرية وهلينية، قبل أن تنشأ عنها الحضارة الرومانية. ومما لا شكّ فيه إلى اليوم، هو أن النماذج الأولى للفنّ والعمارة الإيتروشيين لها طابع آسيوي لا يدحض.»[١٦]

مع ذلك، نشعر بأنّ أتابينن لم يكن مقتنعاً بما يقول. وعندما يسترسل في الكلام على الأصول الطروادية الخرافية للأتراك، كان يبدو كمن يرغب في سرد حكاية مسلية للقارىء – غير أنها تتميّز بالإشارة إلى ذاكرة غربية محبّذة للأتراك، على نحوٍ ما – أكثر مما هو راغبٌ في التطرّق إلى برهان لا يُدحض على أصل مشتركٍ أو، في الأقلّ، يمتّ بصلةٍ قرابة :

«بإمكاننا، عند الاقتضاء، البحث في علم الإيتروشيين عن مصادر الأسطورة، التي شاعت في القرون الوسطى حتّى أيام مونتاني (Montaigne)، حول الأصل المشترك الطروادي للأتراك والأوروبيين.»[١٧]

«لقد جرى تبني فرضية الأصل المشترك للأوروبيين والأتراك والطرواديين، في القرون الوسطى، من قبل هونيبو (Hunibaud)، الكاتب الشيثي في بلاط كلوفيس، ومن قبل دوراك (Durak) وواستهالد (Wasthald) ودانيس الإفريجي، ودياتيس الكوندوي، وغيبير دو نوجان وفنسان دو بوفيه وجان لومير دي بيلج، وحتّى جانتييه – Gentillet – (مقالة في أساليب حسنِ تدبير الحكم)، وميشال دو مونتاني وسيبيون دوبلاي (مذكرات الغاليين).

إلى هذه الأسطورة، شبه المعتمدة رسمياً والمتواترة عبر قرون من الزمن، يشير السلطان محمد الثاني في رسالته الشهيرة إلى البابا بيوس الثاني، بعباراتٍ قد نستلهمها في هذا البحث الذي يمتدح العلاقات التركية الإيطالية :

«إني أعجب، يقول فاتح القسطنطينية، لتمرّد الإيطاليين ضدّي، نظراً لأصلنا الطروادي المشترك، ولحرصي، مثلهم، على الثأر لدماء هكتور.»[١٨]

هذا النمط من الأساطير التي كان لها، في نظر أتابينن المستندِ، جوهرياً، إلى المحاججة التاريخية والجيوسياسية، قيمة حكائية، على نحوٍ خاص، ولا ترد في السياق بوصفها غرائب إلى جانب عناصر أكثر واقعية، سوف تكتسب، مع ذلك، بعداً آخر مغايراً في كتابات جيلٍ بأكمله من المؤلفين الأتراك الذين سيكرّسون أعمالهم لضربٍ من التأليه للمجال الأناضولي ولانفتاحه على البحر. هذا التيار الأدبي الذي تعود ريادته، بالتأكيد، إلى جواد شاكر قبايتشلي[١٩] – المعروف بلقبه الأدبي : صيّاد هاليكارناس (وهاليكارناس هي، اليوم، بودروم)[٢٠]، سرعانَ ما غدا ضرباً من إيديولوجية الهوية التي ما زال الكثير من عناصرها قائماً إلى يومنا هذا، والتي تتبنّى الثقافة والحضارة المتوسطيتين. كما أنّ «فلسفة الصيّاد» التي يتبناها اليوم عدد من الأصدقاء والأقران، هي، من دون شك، الأبرز من بين التصورات المتماسكة النادرة للمتوسط في تركيا. فلن نجانب الحقّ، في هذه الحال، إنْ أفردنا لها متسعاً في تحليلنا، وإن كنّا سندرك، في آخر المطاف، أن المتوسط، في الحقيقة، لا يحتلّ فيها، سوى مكانة ثانوية تكاد لا تحجب إيديولوجيةً أضيق أفقاً بأشواط، وأكثر انعزالاً، وأكثر «انطواءً على الذات الأنانية».

إنّ أول مؤلفات قبايتشلي «المتوسطية»، هو كتابه «صباح الخير أيها المتوسط» (Merhaba Akdeniz)، الصادر عام ١٩٤٧. وتاريخ صدوره هذا يقرّبه، زمنياً، من سلسلة محاضرات أتابينن ؛ ولكن سرعان ما يتضح أنّ المحتوى والأسلوب والمقاصد لدى المؤلفين هي على قدرٍ كبير من الاختلاف بحيث يستحيل، عملياً، تبيان أي صلةٍ بين العملين. لقد سبق لنا أن أشرنا إلى الطابع التاريخي والجيوسياسي لحجج أتابينن ؛ أما قبايتشلي فينهل من تاريخ هو من القدمِ والانتشار بحيث لا يسمح بصوغ أطروحةٍ تتجاوز التفكير الفلسفي ذا النزعة الإنسانية. غير أنّ هذين المؤلفين يختلفان خصوصاً من حيث مقاصدهما ومن حيث الجمهور الذي يخاطبه كلّ منها. لقد كانت محاضرات أتابينن

تخاطب جمهوراً أجنبياً، غربياً، ينبغي إقناعه بفائدة وشرعية الحضور التركي في أوروبا؛ بينما كان قبايتشلي يخاطب جمهوراً تركياً يقترح عليه، بأسلوبٍ خطابي محلّق، رومنطيقي في الأغلب، رؤيةً جديدة للبلد. والواقع أنّ هذه الأخيرة هي التي تضاعف، برأينا، من قيمة أطروحات «الصيّاد» المتوسطية : ففيها يطالعنا الجهد المبذول لصوغ تصوّر جديد للعالم التركي، تصوّر يتعارض، في أكثر من وجه، مع الإيديولوجيات الرسمية السائدة آنذاك.

ولا نعجب لهذا التناقض بين المؤلّف والدولة، عندما نعلم أن مسيرته الخاصّة بدأت بنفيه لثلاث سنوات إلى بودروم حيث فرضت عليه الإقامة الجبرية. فقبايتشلي يدين لهذه الإقامة القسرية باكتشافه تكافلَ الأرض (الأناضول) والبحر (بحر إيجه) الذي عليه سوف يبني رؤاه المثلى لعالمٍ ينبغي اكتشافه. وسوف يبقى «الصيّاد»، حتّى وفاته عام ١٩٧٣، ناطقاً باسم هذه الرؤية المشبعة، إلى أقصى الحدود، بحساسية متوسطية :

«إنه لمن العسير القول منذ متى اكتسبت اللغة التركية المحكية فيها (في هاليكارناس – بودروم) هذه اللهجة. لأنّ اللغة التركية لم تكتسب، هنا، لهجةً بل اكتسبت لحناً. سكانها هم مزيج هائل من الليليجيين والهلينيين والفينيقيين والليديين والكاريين والترك السلاجقة. والشمس التي تُنضج البرتقال تنبتُ، هنا، أناساً على قدرٍ كبير من الحُسْن. فالفتيات، بعامة، فارعات الطول، لهنّ رموش طويلة وأصابع مستدقّة رشيقة. وقد جعل الهواء النقيّ الرنّان كلّ فتاةٍ منهنّ «كارمن». إنّهن شقيقات الورود والياسمين. الدماء الحارة في السواحل المتوسطية – اليونان، إيطاليا، جنوب فرنسا، أسبانيا، الأناضول الجنوبي – هي الدماء نفسها أينما حللتَ. شجرة البرتقال تعلم جيداً أين ينبغي أن تنمو. تورغوت ريس كان من بودروم. كان ينهب كلّ ثروات ضفاف المتوسط لكي يقدّمها إلى الأناضول. أنا لا ألمّح إلى أن فتيات السواحل الأسبانية والإيطالية كانت على قدرٍ من الخفّة. لكنّ الشرف أمر، وأمر آخر كانت، في زمنها، غزوات البحارة العثمانيين[٢٢].

في الأعراس تضاف هنا إلى الآلات الموسيقية المعروفة، الطبلة (darbuka)[٢٣] ذات الإيقاع الكئيب المكتوم. موسيقاهم هي موسيقى حواس. ولكن بدل أن تكون هادئة، تصدح عالية زاخرة بالحيوية. فتلك هي خاصية الذين يحتسون نبيذَ مناخٍ كالعنبِ المسكي غني الطعمِ والرائحة، وقد ذهّبته شمس إيجه. لذلك غالباً ما تذكر الألحان والأغاني هنا، بالخوتاس والمورسينوس والسيغويديّوس والمالاغينياس.»[٢٤]

لقد استعيدت هذه الموضوعة، موضوعة الثقافة والحضارة المشتركتين اللتين تشملان محيط المتوسط بمجمله، من قبل عَذْرا أرهات، إحدى صديقات وتلميذات جواد شاكر. لقد كرّس عنوان كتابها : «الرحلة البحرية الزرقاء» (Mavi Yolculuk) الاسم الذي سوف يطلق، من الآن فصاعداً، على الرحلة البحرية – وهي تمثّل، اليوم، أحد العناصر الأساسية في السياحة التركية في بحر إيجه – والتي كانت تقوم على الإبحار على متن صيّادة (gulet ، بالتركية) على طول الخطّ المحاذي للشاطىء وتطبيق مبادىء فلسفة «الصيّاد». وفي هذا الكتاب بالذات، ستستخدم عذرا أرهات الشخصيّة الرومنطيقية الاكزوتيكية لصيّاد بودروم العجوز لإظهار السمة المشتركة لأحاسيس المتوسط :

«مصطفى أسين، المعروف في بودروم باسم بالوكو، هو صيّاد سبعيني ذو عينين زرقاوين بلون السماء، ونظرة ثاقبة، وشاربين أشيبين متهدّلين فوق شفتيه. جسمه النحيل المنحوت من حزمِ العضلِ البارزة، يعبّر عن كلّ الخشونة الكامنة في قوة البشر الذين يصرفون أعمارهم مبحرين للصيد في عرضِ البحر. ليس بإمكاننا أن نتخيّل بودروم أو كوفا من دون بالوكو. ولا بدّ أنه يعلم، هو نفسه، بأنه يشكّل عنصراً لا ينفصل عن ضفافه لأنه، برغم تزويجه أولاده الستة وحثّهم على السكن في إزمير، لا يغادر بودروم قط. يُقال إنّ بنات بالوكو حسناواتٍ كظباءٍ. وعندما يردّد هذا القول على مسامعه يكتفي بالقول : «بلى، إنهنّ جميلات ! ولكن ما نفع الجمال ؛ حسبهنّ أن يكنّ فاضلاتٍ مستقيمات». بالوكو رجل فَطِنٌ. فكم من الموظفين والضباط طلبوا بناته للزواج، ورفض. زوّجهنّ

لنجارين وندّافين وعطّارين. «لا أريد لأي من أزواج بناتي أن ينظر إليّ باستعلاء». كان يقول معلّلاً. بالوكو كريتي. عندما يتبادل أطراف الحديث مع الصيّاد لن يدري أحد منكم أي لغة يتكلم أهي اللغة التركية أم اليونانية أم الإيطالية. إنها على الأرجح مزيج تختلط فيه أحياناً عبارات بحرية إنكليزية، لغة المتوسط التي وحّدت، عبر آلاف السنين، في كنف حضارة حيّة ومشرقة عدداً لا يحصى من الأعراق والأمم. إنّ عاطفتنا حيالَ بالوكو ناجمة عن كونه يمثّل الصياد المتوسطي بكلّ خاصيّاته، من المنديل المعقود على طريقة القراصنة حتّى خشونة الجلد في قدميه السمراوين. منذ بضع سنوات كنت في آنتيب، على الساحل المتوسطي في فرنسا. وذات مساء، فيما كنت أتطلّع من حولي، من أعلى شرفتي، أبصرتُ رجلاً عجوزاً جالساً عندَ رصيف المرفأ، ملوَّح الوجه، طويل الشاربين، متغضِّن العنق، فصحتُ في سرّي قائلة : «إلهي، إنه بالوكو!». فكذّب صديقي ظنّي : «إنه صيّاد البلدة العجوز. لقد أصبح المسكين عاجزاً عن ركوب البحر وبات يعيش من صدقات أهل البلدة. كما أنه يتوضّع أحياناً كموديل للرسّامين». فعدت أدراجي إلى داخل غرفتي وأنا أردّد في سرّي : «بالوكو الذي أعرفه أجمل منه بكثير».[٢٥]

بيد أنّ السعيَ وراء المتوسط، في نظر «الصياد» ومريديه، لا ينتهي هنا. وذلك، مرّة أخرى، لأنّ المتوسط، وعلى الضدّ من كلّ ما قد توحي به هذه النزعة التوحيدية، ليس غاية في حدّ ذاته. فهو لا يكتسب قيمةً، في نظر هؤلاء الكتاب، إلاّ بمقدار اتصاله بالمصير التركي، لا بل، بالهوية التركية. ولكي يتمّ ذلك، ينبغي أن يكون الهدف الأوّل متمثلاً بربط المتوسط بالحركة الكمالية. وإذ ذاك لن نجد أفضل من استعادة صرخة الحرب الشهيرة التي أطلقها مصطفى كمال في ختام حملة استرداد الأناضول، ثمّ التصرّف بتأويلها لكي يستخلَصَ منها معنىً متوسطيٌّ في العمق. لم تكن المناورة جديدة ؛ ذلك أن عصمت باشا، بنفسه، كان قد استخدمها عام ١٩٣٢، خلال حفل نزع الستار عن نصبٍ يرمز إلى هذا الأمر :

«لقد عيّنَ الغازي والقائد الأعلى للقوات المسلحة بحراً واسعاً

بوصفه هدفاً. فالمتوسط هو منذ آلاف السنين حوضٌ للحضارة ونقطة عبور للسياسة العالمية. إنه ليس الهدف المعبّر عن نتيجة هذه الواقعة غداةَ المعركة التي كان يشير إليها الغازي، بل هو الغاية التي كان ينبغي للأمّة التركية أن تضعها نصبَ أعينها لكي تفوز بالمكانة المشرفة التي تستحقّها في صلبِ الحضارة المتوسطية. هنا تكمن معجزة هذه الحقبة التاريخية التي نسميّها الصراع الوطنيّ. لقد سعت أمم كثيرة، بالحيلة أو بالقوة، لإقصاء الأمة التركية عن المتوسط الذي بقيت، لقرونٍ من الزمن، تسيطر على حضارته وعلى سياسته. غير أن الأمّة التركية، تمكّنت، بإرادتها الخاصّة وبتصميمها الذي لا يلين، من استرداد موقعها ودورها في المتوسط.

ومرّة أخرى، برهنت السنوات العشر الأخيرة على أنّ موقع الأمة التركية في المتوسط ليس حقاً وحسب، بل هو أيضاً أمر مشروعٌ وضروري ينبغي أن يكون مرجواً لخير البشرية والحضارة. فتركيا، وبفضل دورها كحارسٍ قوي، وصداقتها المخلصة، وعظمتها ونزوعها إلى المسالمة وسط الأسرة الدولية، هي عنصر لا بدّ منه في المتوسط.»[٣٦]

كان جواد شاكر قبايتشلي يكتفي، إذاً، بتبني هذه الكناية، من دون أن يغفل تطعيمها بعناصر ثقافية تعلي من شأن الطابعِ العالمي للمجال المتوسطي. ذلك أن أولى غايات «الصيّاد»، وعلى الضدّ من عصمت باشا الذي كان يحلم بانضمام تركيا إلى توازنٍ جيوسياسي جديد، كانت تتمثّل بإضفاء شرعية ما على انتماءٍ ثقافي وحضاري :

«من وجهة نظر إتنية، كما من وجهات نظر أخرى، قد يعتبر المتوسط القارة السادسة في العالم. لقد قسَّم الجغرافيون، على نحوٍ عشوائي، أجزاءً كبيرة من اليابسة إلى قارات، وأطلقوا على إحداها اسم أوروبا وعلى الثانية اسم آسيا. وعليه، وجد المتوسط نفسه محاطاً بثلاث قارات. ولكنّ الواقع هو أنّ سواحل المتوسط ليست أوروبا ولا آسيا ولا إفريقيا ؛ إنها المتوسط. إفريقيا تبدأ من جنوب صحراء الرمال الكبرى. واليونان وفرنسا وأسبانيا ليست هي

أوروبا، إنها، جميعها، المتوسط. خذوا أناساً قادمين من جهات العالم الأربع ووزعوهم على طول ضفاف المتوسط : لن يطول بهم الوقت حتى يفتنهم سحر القارة السادسة وسرعان ما يتحولون إلى متوسطيين حتّى النخاع. المتوسط، كمياهه، هو تاريخ أزرق سيّالٌ للإنسانية. لذا فإنّ كلمات العبارة «أيها الجنود، إنّ هدفكم الأول هو المتوسط !» (والحقيقة أننا ما عدنا نستطيع القول إنها «كلمات»)، هي أكثر من أمرٍ حربي، وتكتسب معنىً عميقاً. ذلك أن الأناضول ليس آسيا، بل هو المتوسط.

لكن المكان الذي يبدو فيه المتوسط متوسطياً بإفراط، فهو المتوسط الشرقي. وهذا ليس أسلوباً أدبياً أو شعرياً في التعبير ؛ إنّه الواقع. لا يسع مناطق أخرى من هذا الكوكب أن تفاخر بأكثر من حضارة واحدة – هذا إذا أتيح لها التفاخر بواحدة. أما المتوسط الشرقي ومحيطه فبإمكانهما أن يفاخرا بالحضارات السومرية والأكادية والبابلية والأشورية والمصرية والحثّية والفارسية والمينوية والإيونية واليونانية.»[٢٧]

غير أن المظاهر خادعة، لأنّ هذه الخطب الجميلة إنما تستخدم ذريعةً للترويج لقضيةٍ أقلّ شمولاً بكثير ليس الفاعل الرئيسي فيها هو المتوسط، بل الأناضول. وسرعان ما ندرك، في الحقيقة، أنّ الطروحات التي صاغها جواد شاكر وأقرانه إنما تهدف، في المقام الأول، إلى إضفاء شرعية ما على الجذور الأناضولية للحضارة المتوسطية، وتالياً، للهوية التركية.

«الأناضول هو مهد كلّ الحضارات المتوسطية. إنه ليس حلماً، بل واقعٌ، إنه سيرورة تاريخية.»[٢٨]

على هذا النحو تولد أسطورة جذور ؛ أسطورة يضطلع الأناضول فيها بدورٍ جميل، دور مولّد المتوسط، ومانحه الحياة، وعلى المدى البعيد، واهب الحضارة الغربية زخم انطلاقتها :

«هذه الجزر تدعى Cyclades»، وهي عبارة تعني «دائرة». غير أن الأرخبيل (البحر القديم) أو بحر الجزر هو مشتل جزر. كأنّ عملاقاً – الأناضول – منتصباً في وقفته قد نثر، بحركة مشتملةٍ

وسخية من يده، بزور الجزر التي كان يحملها في راحة كفّه، وكأنّ الجزر قد نمت على الأثر...

هكذا غدا بحر الجزر، كما شهدنا من قبل في كريت، سيّد ملاحة البشر. وهكذا غدا الشراع والمجذاف، في نظر البشر، بمثل أهمية السكّة والمحراث.

الإنسان الذي لشدّة خوفه، في البداية، من البحر، لبثَ على ضفّته ناظراً إليه ومتطلعاً إلى الجزيرة، لم يقوَ على مقاومة نداء البحر الذي همس في أذنِ روحه «تعالَ، تعالَ، لا تخف يا بنيّ». أبحر في البداية على متن طوفٍ حتّى بلغَ الجزيرة الأقرب. ولمّا راح يجول في أرجاء الجزيرة الأقرب، راحت بضع جزر مجاورة تضحك، قائلةً «مرحى، لقد عبر أخيراً وها قد وصل». ماذا تفعل لتقاوم إغواء المجهول الذي يتنازع نفسَك، وحتّى خصلات شعرك ؟ على هذا النحو ولد عشق البحر على طول ضفاف المتوسّط. إيطاليا ! أسبانيا ! الجزائر ! كريستوف كولومبس ! ماجلان ! بيري ريس ! كلهم حلموا بما وراء الأفق. تكشّفت الطبيعة اللانهائية أمام أبصارهم. في ظلّ سذاجة صغار البشر هؤلاء الذين ما كانوا يعرفون أو يفهمون المال أو الرقّ، في الاتساع اللامتناهي لبصرهم، ماذا كان المحيط الأطلسي، والمحيط الباسيفيكي (الهادىء)، والمحيط الهندي ؟ قطرة ماء، دمعة ! بفضلهم غدت الكرة الأرضية كلّةً من الكاوتشوك نبتاعها بخمسين قرشاً لدى بقّال الناحية يتقاذفها صغار البشر ثمّ يلتقطونها !»[٢٩]

المسألة إذاً، هي، في المقام الأوّل، مسألة ردّ فعلٍ على «أطروحات التاريخ التركية» في الثلاثينات، ومحاولة لدحض مزاعم النقاء الإتني التي أطلقتها انتلجنسيا قومية النزعة. هذه «النزعة الأناضولية»[٣٠] تعكس إذاً الرغبة في إقناع الأتراك بأنّ البحث عن جذورٍ تركية جامعة وطورانية، جامعة ليس أكثر من هروبٍ إلى الأمام مؤذٍ لا طائل تحته، وأنّ الثراء الحقّ يكمن في الطبيعة غير المتجانسة للحضارة الأناضولية :

«هذه الأساطير [الأناضولية] لم تُشرِب هذه الجبال والصخور

فحسب، بل انحفرت في نفوس الناس وغدت، عملياً، هي وطنهم الثقافي. ومع ذلك، نحن نرفض أن نتبنّى ما أوحت به هذه الأماكن التي هي وطننا الفعلي، لأناسٍ آخرين سوانا. ومثل هذا الرفض يدفعنا إلى شوفينية (تزمّت وطني) وإلى عدوانية نتبيّنها في كلّ مجالات حياتنا اليوم.

لا تنسب الخرائط إلى الأناضول الدور الأوّل الذي اضطلع به في التاريخ. فالأناضول فيها ليس سوى ركنٍ ضئيل من آسيا يمتدّ باتجاه الغرب. وبالنسبة لتاريخ الحقبة الكلاسيكية، لم يكن الأناضول مجسّداً على التوالي إلاّ بوصفه إقليماً تابعاً للإمبراطوريات الفارسية، ثمّ المقدونية، ثمّ الرومانية. في حين أن الأناضول هو المنطقة التي اضطلعت، لوقوعها عند تقاطع القارات الثلاث الكبرى التي هي آسيا وأوروبا وإفريقيا، بدور الجسر للذين يودون العبور من إحدى هذه القارات إلى أخرى. فلطالما عبرت الأناضول أعداد المهاجرين وجحافل جيوش الغزاة الزاحفة طلباً لفتوحاتٍ جديدة. لم تنكّل الجيوش الغازية بالشعوب التي صادفتها هناك، بل كانت على الدوام تختلط بها. في آخر المطاف، جئنا نحن الأتراك واختلطنا بها، إلى درجةٍ غدونا معها أكثر هجنة من الأميركيين. وإذا بنا، في المحصلة، نحمل في عروقنا دماء كلّ الذين أتوا، في هذه الحقبة أو تلك، الأناضول وامتلكوا هذه الأرض لفترات قد تقصر وقد تطول. وعلى الرغم من أن الثقافة لا يمكن أن تكون مسألة دماء، نحن، بحكم الواقعِ والقانون، ورثة كلّ الأشياء التي نرفضها بذريعة أنها غريبة عنا.(٣١)

لماذا هذا البلد هو ملكٌ لنا ؟ هل لأننا غزوناه بأربعمئة محارب من الفرسان الوافدين من آسيا الوسطى ؟ من يعتقدون ذلك لا يعتبرون هذا البلد، حقاً، وطناً لهم. إنهم يشعرون بأنهم منفيون في بلدهم. الحثيون والإفريجيون واليونانيون والفرس والرومان والبيزنطيون والمغول، هم أيضاً، وكلٌ بدوره، غزوا الأناضول. ولم يكن الأناضول ملكاً لهم، بل انتهى بهم الأمر أن أصبحوا، هم، ملكاً للأناضول.

هذا البلد لنا لأنه لنا، وليس لأننا غزوناه. وحتّى لو كان الوافدون من الخارج يشكلون الأغلبية بيننا – وهذا ليس واقع

الحال بالطبع – فقد اختلطوا جميعاً. لقد بتنا في وقتٍ معاً غزاةً ومغلوبين. نحن الذين نَدمُج ونحن الذين نُدمَج. لذلك فإنّ كلّ ما يوجد في بلدنا، من الأقدم إلى الأحدث عهداً، هو ملك لنا. تاريخ شعبنا هو تاريخ الأناضول. لقد كنّا على التوالي وثنيين ثمّ مسيحيين ثمّ مسلمين. وهذا الشعب، هو نفسه الذي شيّد الهياكل والكنائس والمساجد. ونحن أيضاً الذين كنّا نملأ مدرّجات المسارح ذات الرخام الأبيض كما نملأ الخانات المعتمة. والتفتنا نحو السهوب كما التفتنا نحو البحر الأزرق. ما لا يحصى من الدول ومن الحضارات شيّدت على كواهلنا، وسحقتنا بثقلها. تكلمنا باثنتين وسبعين لغة قبل أن نعتمد اللغة التركية. وما زلنا نحسّ بطعم كلّ لغة منها على ألسنتنا. هلاّ لاحظتم أسماء شهورنا وأيامنا وقرانا ومدننا. كم من الأيدي المختلفة تشابكت في رقصاتنا الشعبية، في الهورون وفي الهالاي. لقد امتزج الشرق والغرب فينا. لسنا أحدهما أو الآخر، نحن الاثنين معاً. لقد تكلّم الأناضول بلسان «مولانا»:

تعالَ، تعالَ، أياً تكن، تعال
كافراً، عابد نار، عابد وثنٍ، تعالَ مهما كنتَ
ديرنا ليس ملاذاً لليائسين
حتّى لو أنكرتَ نذورك مئة مرّة، تعالَ مهما كنتَ

نحن أتراك على أنحاءٍ مختلفة، ومسلمون على أنحاءٍ مختلفة. ما يغلب، في طينتنا، هو الأناضول، مهد كلّ الحضارات.»[٣٢]

كخطابٍ ذي محتوى إنساني، على الضدّ من النزعات القومية والاقتصارية السائدة آنذاك، كانت النزعة الأناضولية لدى «الصيّاد» تتيح أيضاً التخلّص من بعض عقد الدونية الناجمة عن مسار التغرّب الذي تتعرّض له الأمة التركية منذ ما يزيد على المئتي سنة: فالحقيقة أنّه منذ لحظة الاعتراف بأن الأناضول كان مهد الحضارات القديمة، وتالياً، في أصل الحضارة الغربية، يغدو مسار التغرّب شكلاً من أشكال العودة إلى الينابيع، من العودة إلى الجذور. لذا لم يعد هناك ما يدعو إلى اعتبارها غريبة، هذه

الحضارة الحديثة التي تصبو إليها تركيا. فالأحرى أن نضحكَ من هذا اللبس المأسوي الهزليّ الذي أرغم العثمانيين ومن ثمّ الأتراك على استيراد وتقليد ما كان دائماً ملكاً لهم، شرعاً، بصفتهم أناضوليين.

«خلال عهد التنظيمات، جرت محاولة للتخلّص من التأثير الرجعي للشرق عبر الالتفات نحو الغرب. فألغيت الأردية والعمائم لتستبدل بالردنغوت الاستانبولية والشاشية. ما حدا بألكسندر دوما إلى تشبيه أسلافنا، في ذلك العهد، بقناني نبيذ سوداء وقد سدّت بشمعٍ أحمر. بعد ذلك، كان على علومنا، بحسبِ ما قاله توفيق فكرت في أوساط حركة «Servet-i Fünun»[٣٤] أن تغيّر منحى تبعيتها وأن ترتبط بالغرب. لقد اعتبرنا هذه العلوم الغربية علوماً غريبة، بينما الأناضول هو مهد الحضارة الغربية. فمعظم ما يقرأه الأولاد في الغرب ليس سوى أساطير الأناضول القديمة. ونحن، هنا بالذات، أبناء الذين ابتكروا هذه الحضارة. مع ذلك، منذ خمسين أو ستين عاماً، وفي الوقت الذي كنا نتكلّم فيه عن التبعية للعلوم الغربية، انتُزِعَ، الواحد تلو الآخر، نتاجُ هذه الثقافة من الأراضي العثمانية، مثل أفروديت ميلو، ونصب الانتصار الساموتراكي، وهيكل أرتيميس في أفسوس، وهيكل زيوس في برغاما، وضريح هاليكارناس. في تلك الأثناء، فخورينَ بتغرّبنا، ارتدينا الطربوش[٣٥] والردنغوت الاستانبولية[٣٦]. فما كان جدوى أن نأخذ عن الغرب زهوره لكي نعلّقها، بخيطان قطن، على الأغصان اليابسة لأشجارنا العتيقة، فيما الجذع والجذور التي أنبتت هذه الأزهار نمت، هي أيضاً، في أرضنا ؟»[٣٧]

بهذا يَلقى الدورُ تمامَه. فمن خلال إعادة الصياغة التاريخية الميتولوجية البارعة تمكّن هؤلاء المفكرون ذوو النزعة الإنسانية أن يحرزوا ثلاثة أهدافٍ بضربةٍ واحدة. فمن جهة، كانوا يستبعدون التيارات القومية التي تسعى إلى تتريك ماضي الأمة بوساطة مرجعياتٍ خارجية المنشأ، عبر استبدالها ببناءٍ يتمحور حول الأناضول بالذات. ومن جهة أخرى، كانوا يستبدلون السيناريو الإتني النزعة – لا بل العرقي – بأطروحةٍ إنسانية النزعة مبنية

على فكرة التحام الثقافات والحضارات. وأخيراً، كانوا يسعون للتصدّي لعقدة الدونية التركية حيال الغرب من خلال البرهان على أن الحضارة ليست، في المحصلة، سوى نتاج ثقافة هي أناضولية في الجوهر. ولكن تبقى مسألة واحدة من دون حلّ : إذ كان ينبغي التخلّص، بأي ثمن، من أسطورة اليونان حاملة الحضارة – مهد الحضارة الغربية – والسعي للبرهان على أنّ اليونان نفسها، وعلى الضدّ من كلّ الأفكار المسبقة، قد استقت حضارتها من الأناضول. ولهذا الغرض بذل قبايتشلي ومريدوه كثيراً من الحماسة، لا بل الشراسة التي كانت لا تنسجم كثيراً مع المنحى العام لموقفهم التوحيدي والإنساني[٣٨]:

«لننتقل إلى قضية اليونان. أمّا عالم اليونان القديمة هذا، الذي نعتبره مدرسةً، شأن كلّ الأمم الأخرى، لأنه ميراث مشترك للبشرية، فقد أسهمنا فيه، في الأقلّ، بقدر ما أسهمتِ اليونان فيه. ومع ذلك فقد أهملنا هذا الإسهام لقرون من الزمن وانتظرنا ريثما تعود إلينا مبرّزةً من قبل أجانب. الإسكندر، أولاً، الذي تسمّى باسم أناضولي، على ما يبدو، والذي جاءت أرتميس لتكريم ولادته منتقلةً من الأناضول إلى مقدونية، ثمّ الرومان الذين كانوا يعتبرون أن أسلافهم أناضوليون، ثمّ العرب الذين نهلوا من ثقافة يونانية من المرتبة الثانية لا بل الثالثة، ثمّ الأوروبيون الذين فاخر عدد من ملوكهم بأصولهم الطروادية، هؤلاء جميعاً باعونا البضاعة التي غنموها منا. نحن الذين ألّفنا أجمل الأساطير، في جبل بوزداغ، في جبل إيدا، في جبال بش بارماك، والأجانب هم الذين استغلوها. ما من أحدٍ سوانا لم يعجب بهوميروس، ابن الأناضول. هوميروس هذا الذي كانت روحه الودودة متفانية كلّ التفاني في سبيل الأناضول، والذي، برغم كلّ الضغوط، عبّر عن حنقِه المحتدمِ حيال مدمّري طروادة، والذي كانت مدائحه الحقّة موجهة إلى هكتور وليس إلى آشيل.[٣٩]

بحسب نيتشه، تتقوّم المعجزة اليونانية بعنصرين، بمفهومين مجسّدين بكائنين إلهيين : أبولون وديونيسيوس، أي الابداع الذكي المحدّد بأبعاد إنسانية، والإبداع المفرط الذي لا يعرف حدوداً

والذي يتصل مباشرةً بالطبيعة. من مزيج هذين الميلين نشأت التراجيديا، وفيها ينبغي البحث عن سرّ هذه المعجزة. لكنّ الحقيقة أن أبولون وديونيسيوس هما شخصيتان إلهيتان أوجدهما الأناضول. الأرجح أن جذور أبولون موجودة في ليسيا، أي في تلك المنطقة الممتدة بين فاتهيا وأنطاليا. أما ديونيسيوس، فإنه إله آسيوي لم يتمّ تبنيه من قبل اليونان إلاّ فيما بعد. والحقّ أن ديونيسيوس ليس سوى تشخيص ذكريّ للآلهة الأمّ الأناضولية، سيبيل.»[٤٠]

بعد أن انطلقت من مثال متوسطي، تخلص يوتوبيا «الصيّاد» إلى السقوط في غوغائيةٍ سوف تغدو، في عددٍ من مظاهرها، بمثلِ الحماسة القومية التي تعبّر عنها كثيرٌ من الرؤى والتصوّرات الهُوية التركية[٤١]. من المتوسّط، لن يبقى، في آخر المطاف، سوى صفة «الأزرق»، مجرداً من كلّ المعاني الأصلية ومنسوباً، على نحوٍ مستهجن، إلى الأرض الأناضولية[٤٢].

فهل نجد، في ما سبق، تأكيداً لما ذكرناه في البداية بشأن عجز تركيا عن توليد تصوراتٍ متوسطية حقيقية ؟ بلى، على الأرجح، ذلك أنه إذا كان ثمة قاسم مشترك ما بين هذه التصورات المتوسطية المزعومة، فهو ضربٌ من النزعة الأنانية التركية التي تحيل، على الدوام، البعدَ التركي إلى مجرّد سندٍ للهوية التركية، وسواء كان المخاطَب جمهوراً أجنبياً أو محلياً. فتركيا إذاً عاجزة جوهرياً عن «التوجّه» إلى المتوسط واعتبار هذا الأخير بكليّته، وبما يتجاوز الصلات الفورية والمباشرة التي يمكن أن تصلهُ بالعالم التركي. ولكن هل نحن، هنا، حيال ظاهرة فريدة حقاً ؟ وهل يمكن حقاً أن نتوقّع من تركيا – أو حتّى من أي بلدٍ آخر من محيط الحوض المتوسطي – أن تكون لها رؤية إجمالية متعالية على الحلقة الضيّقة للاعتبارات السياسية المباشرة ؟ وحدهما إيطاليا وفرنسا، بفعل ثراء تجربتهما وتألق ثقافتيهما الاستعماريتين في المتوسط، تشكلان، على الأرجح، الاستثناءين الوحيدين لهذه القاعدة. أما التجربة «الاستعمارية» العثمانية –

ولا ندري إذا كانت العبارة هي الملائمة حقاً – لم تتوفّر لا على الاتساع ولا على العمق المطلوبين لصوغِ مثل هذا المتخيّل.

بالنسبة لتركيا المعاصرة، يبدو المتوسط طريقاً مسدودة أكثر منه مجال انفتاح. لقد سبق للعلاقات المتوترة مع اليونان أن جعلت من بحر إيجه منطقة نزاع مستتر. وسوف تؤدّي الأزمة القبرصية، في آخر المطاف، إلى تأكيد عزلة تركيا في ناحيةٍ منزوية من المتوسّط. أمّا باقي المتوسّط فهو، في معظمه، مقنّع بتصورات أشدّ تأثيراً بكثير : عالم عربي بالنسبة للحوض الشرقي والساحل الجنوبي، وأوروبا بالنسبة للضفاف الشمالية... وما من صيغةٍ متوسطية من شأنها حقاً أن تجسّر الهوة التي باتت موجودة بين مختلف هذه المناطق وبين تصوّرها في الادراكات التركية.

فضلاً عن ذلك، تجدر الإشارة إلى أن بحر إيجه قد حلّ، إلى حدّ بعيد، محلّ المتوسط في الاهتمامات والتصورات التركية الحالية. وسواء كانت بناءة أم صراعية، فإنّ هذه التصورات لا تكتسي بصياغةٍ ملموسة على نحوٍ ما إلاّ وفقَ منظور إيجي، بفعل مجاورة هذا البحر الفعلية للمجال التركي واندراجه ضمنَ بوتقةٍ عيش (lebensraum) سياسية ثقافية. بديهيّ أن النزاعَ، إجمالاً، يغلب التعاون، سواء على مستوى الخطاب السياسي أو على مستوى الصياغات الأدبية. ففي المحصلة، كيف لنا أن نغفلَ حقيقةَ أنّ فلسفة قبايتشلي وأتباعه، الفلسفة «الزرقاء»، حتّى هي، ومهما بدت ذات توجه إنساني، إنما تفضي إلى نزاعٍ تركي يوناني حول أبوّةِ حضارةٍ إيجية ما.

مع ذلك – وتلك ظاهرة حديثة العهد نسبياً – لقد بدأت تظهر تيارات توفيقية ساعيةً لإقامة صلاتٍ بين ضفتي بحر العداوة وسوء الفهم هذا، وخاصّة على الصعيدين الأدبي والموسيقي. هكذا بتنا نلاحظ لدى جمهورٍ تركي «مستنير»[٤٣] اهتماماً متزايداً بالموسيقى اليونانية والتي يكتشف فيها بإعجابٍ أوجه شبهٍ بالموسيقى التركية. وكذلك الأمر في مجال الأدب الذي سيردّد أكثر

فأكثر أصداء هذا التيّار «الودود» الذي يجمع الشعبين حول رابطةٍ من العادات والثقافة. ولكن ينبغي أن نوضح بأنّ هذه النزعات هي نزعاتٌ هامشية جداً. وهي تخطىء، من ناحية أخرى، بما تبديه من المراعاة المفرطة، ومن افتتان «بالآخر» وميلٍ واضحٍ جداً لاختلاق فردوس مفقود من التعايش والانسجام ما بين المتَّحَدات. بعبارةٍ أخرى، من اليسير جداً أن يؤخَذَ على هذه الصياغات ميلها إلى امتثالية «مهذّبة»، إلى ضربٍ من «اللباقة السياسية» المفرطة بعض الشيء. ولكن إليها يعود الفضل في الاهتمام «بالآخر» لما هو عليه حقاً، لا بغيةَ التوصّل إلى استنتاجات بشأن الذات. كما أنها غالباً ما تلتفتُ إلى الفرد وإلى المعاش الفردي، معيدةً بذلك إلى المعيارِ الانساني ما كانَ، إلى يومِه، ممتزجاً بالصياغات النظرية أو النظرية المزعومة. ويبرهن النجاح الذي لاقاه، من الطرفين، بعض هذه الأعمال(٤٤)، كم أنه كان يستجيب لحساسية وحاجةٍ صادقتين، مهما كان هامشياً قياساً بالنزعات والرؤى السائدة.

ولكن، مرّة أخرى نسأل : هل هذا إسهامٌ متوسطي حقيقي ؟ هل ينهل هذا الاهتمام المفرط المتبادل بين هؤلاء «الأخوة الأعداء» وحيَه من رؤيةٍ أو من إشكالية متوسطية ؟ ذلك أن معاشَ ماضٍ تاريخي مشترك – تناقضات، منافسات، شغف، كراهية، افتتان – وتأويلاتها المعاصرة، المتجددة أبداً، تُثقِل بوطأتها الكبيرة على الميزان فلا تتيح للمتوسط أن يتحرّر وأن يفرض نفسه إلى أبعد من حدود نزعةٍ إيجية أو نزعة أناضولية ضيّقة(٤٥). يبدو إذاً أن المتوسط منذورٌ، فعلاً، لرؤيةٍ مفرطةٍ في عقمها ومنمّطةٍ، مستلهمةٍ من الميتولوجيا السياحية لهذه الأيام : بحر أزرق، منازلٌ بيضٌ، زيت زيتون، صعتر وإكليل الجبل...

ماذا لو لم يكن المتوسط، في آخر الأمر، إلاّ هذا حقاً ؟ ألا يسعنا أن نعكس وجهة تعليلنا الأصلية، وبدلَ أن نبحث، بأي ثمن، عن تصورات متوسطية تركية، نسأل أنفسنا إذا كان غياب التصورات «المتماسكة» هذا يشير إلى عبثية البحث، أكثر مما يشير إلى عدمِ

القدرة على توليدها ؟ فهل من الانصاف أن تؤخذَ على تركيا نظرتها إلى منطقةٍ تعرّف نفسها بالعروبة، بأنها عربية أكثر منها متوسطية، أو بأنها أوروبية تلك المنطقة الأخرى التي تطالب بأوروبيتها حتّى قبل أن يخطر المتوسط ببالها ؟ وقصر النظر التركي المنصبّ على بحر إيجه والذي لا يتيح النظر إلى أبعد، أليس له نظيره في اليونان ؟ وإذا كانت التصورات المتوسطية قد وَهنَت إلى هذه الدرجة في غالبية البلدان المحاذية، فما جدوى السعي لصوغ، لا بل لإعادة ابتكار، هوية لم يعد لها أي تأثير حقيقي على التوازنات المعاصرة ؟

الأرجح أن المشكلة تكمن في حقيقةِ أن الخطاب المتوسطي ما عاد يمتلك الكثير مما يقترحه وما من شأنه أن ينافس الخيارات السياسية أو الثقافية لعصرنا هذا. ففي عصر لا تني الحدود تتعاظم فيه بين شمال وجنوب وبين غرب وشرق، بات من الصعوبة بمكان توليد وتدبير فكرة متوسط قد يناط بها أن تتجاوز وأن تتسامى على الانقسامات العميقة.

في حالة تركيا الملموسة، يكفي أن نقارن بين الظروف الخاصة بقبول عضويتها في حلف شمال الأطلسي في الخمسينات، وبين الظروف الحالية لانضمامها المؤجل باستمرار (أبحسب الروزنامة اليونانية ؟) إلى الاتحاد الأوروبي، لكي ندرك هذا التغيير. لقد كان حلف شمال الأطلسي، وهو حلف عسكري وسياسي لا يفترض تبعاتٍ أو ارتباطات ثقافية ولا حتّى اقتصادية، يستمدّ قوته من تشكيل تكتّل دفاعيّ ضدّ «الآخر»، أي الاتحاد السوفياتي. مثل هذا الحلف لم يكن يفرض، عملياً، أي تعريفٍ لعناصره المكوّنة اللهمّ إلاّ بالتعارض مع العدو – الحقيقي أو المتخيّل. ما يفسِح في المجال أمام كلّ أنواع التعريفات والتصورات المتوازية في صلبِ الحلف، كالأطروحة المتوسطية التي كان يدعو أتابينن إليها. أما اليوم فالاتحاد الأوروبي يعرّف نفسه كمتحدّ بالمعنى الأشدّ للعبارة وتالياً يطالب أعضاءه بالتزامِ معاييره التي تتجاوز بما لا يقاس

معايير المشروع الابتدائي لسوقٍ مشتركة. وإذا استبعدت تركيا منه، فهي تدرك بأنّ مردّ ذلك إلى معايير ليست اقتصادية وحسب، بل هي تتعلّق بالسياسي والثقافي، لا بل حتّى بالديني. في ظلّ الوضع الراهن، لم يعد هناك معنى لأي مطالبة بانتماءٍ أوروبي من طريق المتوسط، لأنّ الهدفَ المطلوب – أوروبا – بات يمتلك تعريفاً داخلياً شديد التماسك، وممتنعاً تقريباً على أي مسعىً موارِبٍ للانضمام إليه.

هناك وضع مماثل، أو، في الأقلّ، وضعٌ يفضي إلى نتائج مماثلة، يمكن أن يُلاحَظ بشأن الطرفين الآخرين – الشرقي والجنوبي – للمتوسط. فإذا كانت العروبة و/أو الاسلام يحجبان، في أغلب الأحيان، كلّ مرجعيةٍ متوسطية في التصورات التركية لهذه المناطق، فإنما ذلك، في آخر الأمر، وإلى حدّ بعيد، انعكاسٌ لغلبةِ هاتين الهويّتين على التعريف الذي تصوغه لذاتها معظم الدول والأمم القائمة فيهما. وسواء كان ذلك في الرؤية السلبية للعناصر «التقدمية» للمجتمع التركي أم في الصياغات المقوّمة للعنصر «المحافظ/الرجعي»، فالإسلام، على نحوٍ خاص، هو مرجعية حاضرة أكثر من أي صياغة ممكنة أخرى.

لنصلَ بهذه المساءلة إلى حدّها الأقصى. إذا كانت تركيا عاجزة عن توليد تصوّر متماسك للمتوسط، لا بل أكثر من ذلك، إذا كان هذا العجز هو، حقاً، انعكاس لتقويمٍ واقعي لبطلان مشروعٍ مماثلٍ، هل ينبغي الإصرار على ضرورة تبيان «الأشكال المحتملة لرؤية مشتركةٍ للمتوسط» ؟ وكيف يمكن، من ناحيةٍ أخرى، إغفال حقيقة أن المبادرات النادرة لتحليل، ومعاينة، ومساءلة، ولكن أيضاً للترويج للانتماء المتوسطي –وهذا المشروع هو أحد الأمثلة عليها– تصدر، بمجملها تقريباً، عن أوروبا المتوسطية ؟ قد يرى البعض في ذلك خطّةً بارعة غايتها تحييد متوسطٍ «آخر» عبر إيهامه باندماجٍ مع الغرب مع إبقائه على مسافةٍ منه : حاجز أمام البلدان المحاذية التي قد تنقلب لتصبح في عداد عالمٍ آخر، وجائزة

ترضية للأمم التي تعبت من الانتظار على أبواب أوروبا...

إنّ وجود مثل هذه «المؤامرة» لا يبدّل في الأمر شيئاً. فالحظوظ قليلة أو معدومة في أن تكتشف تركيا، فجأةً، في قرارة نفسها – شأنها شأن بلدان أخرى عديدة في المنطقة – ميلاً عبر متوسطي أو ميلاً متوسطياً جامعاً. ذلك أن الرهانات والتوازنات السياسية والاقتصادية والثقافية الراهنة، تتضافر على نحوٍ يجعل فكرة المتوسط، على الأرجح، مكرّسةً لحياةٍ من الفضول الأدبي الذي يستلهم وحيه من النوستالجيا التاريخية، واليوتوبيا الانسانية، لا بل حتّى من الابتذال السياحي. ففي عالم تحكمه اعتبارات مفرطة في واقعيتها، يبدو التهميش الناجم عنها أمراً لا بدّ منه. غير أن اللعبة ربّما كانت تستحقّ العناء، ففي المحصلة ليس الصعتر أو إكليل الجبل أو المنازل البيض أو البحر الأزرق بالأمور التافهة...

* * *

دفعتني قراءة ثانية، متأنية، لما سبق، إلى إضافة هذه الحاشية لاجتناب أي سوء فهم محتمل حول بعض الملاحظات، وخاصّة حول موقفٍ يبدو لي قابلاً لإثارةِ لَبسٍ. وخيار أن أضيف حاشية بدل إعادة النظر في النصّ هو خيار شخصي، أي قابل للنقاش، مردّه الرغبة في شرحِ موقف من دون الاضطرار لانكاره. ورجائي أن يكون شكل هذا النص، وهو شبه تحليل وشبه دراسة، هو عذرُ الحريّة التامّة التي توسلتها في تحرير هذه الإضافة.

يتعلّق الأمر جوهرياً بتوضيح نقطتين. الأولى تتعلّق بالنبرة التي يوحي بها النصّ والتي تبدو لي، على نحوٍ استعادي، صلفةً بعض الشيء، وساخرة، ولاذعة. النقطة الثانية، وغالباً ما ترتبط بالأولى، تتعلّق، أولاً، بتقويمٍ ربّما كان مفرطاً بقسوته لمحصلة المشاريع المتوسطية التركية، وتتعلّق، ثانياً، بتقويمٍ مفرط في سلبيته، على الأرجح، لأهمية ولمعنى التصورات المتوسطية.

في الحالتين ينبع هذا الموقف السلبي، جوهرياً، من شعورٍ بالغضب والاحباط. غضب إزاء عقم خطابات الهوية التركية. غضب إزاء حقيقة أن أيا من هذه التصورات المقترحة لم تكن قادرةً على تجاوز النزعة الاختزالية لخطابٍ قوميّ سطحيّ. غضب حيال إدراكي أنّ الخطاب الإنساني اليساري النزعة للمدرسة «الزرقاء» قد سقط في شَرَكِ النزعة القومية المداجية فيما كان يزعم التصدّي للنزعة الشوفينية. غضبٌ حيال واقع أن هذا الخطاب لا يزال يردّد اليوم في ظلّ غياب تام للحسّ النقدي وبيان هناته. وإحباط من سياقٍ تجزئة العالم اليوم الذي يحول، عملياً، دون مدّ أي معبرٍ فوق هاوياتِ «العولمة». وإحباط، أخيراً، من الشعور بأنّ مثل أشكال الانفتاح هذه محكومة كلّها تقريباً بأن تغدو فخاخاً سياسية أو بأن تهمّش نفسها بنفسها داخل حلقاتٍ ضيقةٍ من الحالمين أو المثقفين.

لا ينبغي لهذا الموقف الذي ربّما بدا شديد التصلّب أن يُنظَر إليه بوصفهِ تشكيكاً بصلاحية المشروع الذي يجمعنا. بل على الضدّ من ذلك، إني أحرص على التشديد على أهمية ورشة التفكير هذه حول التصورات المتوسطية التي يتضح أنها مفيدة لكشفِ ولبيان مواضع القصور والإدقاعِ في «حدسِ العالمِ» لأمّةٍ ما. ولكن، بصرفِ النظر عن هذه الفائدة غير المباشرة، اسمحوا لي أن أثبتَ التصويبات التالية للمحصلة المثبتة فيما سبق :

– برغم بقائها هامشية، لقد أسهمت التصورات المتوسطية في إعادة النظر، لعجزها عن خلخلتها، في عددٍ من قيم النزعة القومية التركية. فهي بذلك، تكون قد أسهمت في تطوّر إيجابي باتجاه تلطيف معايير تعريف الأمّة، وإن كانت لم تقدر، على المدى البعيد، أن تتجنّب سياق ابتلاعها من قبل تصوراتٍ أقوى منها.

– لقد أدّى هذا «الانفتاح النسبي» عبر المتوسط، إلى ولادة ظاهرة حديثة العهد تتمثّل بالبحث عن الآخر في السياق الأضيق لبحر إيجه. وإذا كان صحيحاً أن هذا التيار لا يزال هامشياً نسبياً

ويعوزه قدرٌ من التلقائية، فقد صار بإمكاننا اليوم أن نأمل في الحصول منه على نتائج أجدى بكثير من كلّ ما سبقها. ذلك أن أهمية الحدّ المشترك بين تركيا واليونان تكمن في أنه نقطة التقاطع بين ثلاثة أبعاد على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية: التاريخ المستمدّ جذوره من تعايشٍ غالباً ما يكون مؤلماً، غير أنّه حميمٌ في كلّ حال؛ الجغرافيا الناجمة عن تقاسم مجالٍ متماسك والتي من شأنها أن تفضي إلى إعادة تقويمٍ للمتوسط على نطاقٍ أوسع؛ وأخيراً، السياسة التي اكتسبت قيمةً زائدة ملحوظة منذ انضمام اليونان إلى الاتحاد الأوروبي. ليس من قبيل العبث إذاً أن نرى في هذه المواجهة طاقةً محتملة هائلة من شأنها أن تحطّم الحواجز التي تعزل تركيا وتبقيها في طريق سياسية وثقافية مسدودة.

ينبغي للبرنامج – برنامجنا – أن ينظر في تصورات المتوسط، ولكن أيضاً أن ينظر في غياب هذه التصورات، أو في تشوّهاتها الممكنة. كما أن مسألة هامشية المتوسط وتصوراته ينبغي أن يجري بحثها من دون مراوغة. إنّ مخاطر التهميش – مسألة الابتذال السياحي، وعمليات إعادة الاختراع النوستالجية أو الشرك السياسي المشار إليه أعلاه – لا ينبغي أن يُنظَر إليها بوصفها عقبة يتعذّر تخطيها أو بوصفها برهانَ بطلان، بل بوصفها تحدياً تنبغي مواجهته. ذلك أنه إذا كان المتوسط يمثّل اليوم ورقةً رابحةً ووعداً بمستقبل، فإنّ ذلك يكمن جوهرياً في طاقته الكامنة على تخطي الحواجز الإيديولوجية والتسامي عليها، وعلى إحداث صدعِ انفتاحٍ في الغيتوات الثقافية، قليلاً على غرار ما لم يتمكّن من إنجازه، إلاّ على نحوٍ غير تام، في الحالة التركية.

الحواشي

(١) أتيان كوپو، من الأدرياتيكي إلى بحر الصين، التصورات التركية للعالم التركي من خلال كتب التاريخ المدرسية، ١٩٣١–١٩٣٣، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الجغرافيا التاريخية، (بالفرنسية)، جامعة باريس الثامنة، ١٩٩٤، ص٣٩٣–٣٩٦. أنظر أيضاً للمؤلف نفسه، أتيان كوپو، «الكتب المدرسية والجغرافيا التاريخية : الحالة التركية. دراسة مدوّنة من الخرائط التاريخية المدرسية»، في مجلّة «Hérodote»، ١٩٩٤، ص ١٩٦–٢٢٤ وخرائط الملاحق ؛

(٢) رشيد صفّت أتابينن، الأتراك الغربيون والمتوسّط، استانبول، نادي السياحة والسيارات في تركيا، ١٩٥٦ ؛

(٣) رشيد صفّت أتابينن، «إسهامات تركية في الأمن والحضارة المتوسطيين»، محاضرة ألقيت في باريس في ٢١ حزيران/يونيو ١٩٥٠، في قاعة المعهد العالي للفنون الجميلة، في «الأتراك الغربيون والمتوسّط»، المذكور، ص ٥٦ ؛

(٤) نفسه، ص ٥٩–٦٠ ؛

(٥) نفسه، ص ٦١ ؛

(٦) «لقد تضافرت الحضارات الفرنسية والإيطالية والتركية في سعيها سوياً في الشرق الأدنى، وبإسهامات متبادلة، من أجلِ الإثراء المعنوي والثقافي لأهله كافّةً» (نفسه، ص ٦٦) ؛

(٧) «على محيطِ المتوسّط، هناك بعض الشعوب الأقلية ذات التقاليد الفوضوية – التي زعمت بعض الدسائس الغربية أنها تسعى لتحريرها من النير التركي – لا يبدو البتّة أنها أبدت، على الأثر، أقلّ مشاعر الامتنان حيال أولاء الذين دفعهم قصر النظر السياسي إلى حثّهم المتواصل على التصدّي للسلم العثماني الذي أتاح لهم، لأربعة قرون خلت، في الأقلّ، أن يعيشوا وأن يتكاثروا وأن يثروا ويحافظوا على ثقافتهم بحماية السلاح التركي» (نفسه، ص ٦٦–٦٧) ؛

(٨) إنّ موضوعة عدم الإدراك وسوء التقدير لدى القوى الغربية في القرن التاسع عشر، و«الخيانة» التي ترتبت عليهما في الموقف من الأتراك، هي

موضوعة غالباً ما تتردّد في محاضرات أتابينن. هكذا يستخدم بعض المؤلفين من المحبّذين للأتراك للتعبير عن «الإقرار بالذنب» الأوروبي الذي طالَ انتظاره : «لا أريد أن أختم هذه الشواهد المطوّلة بحقّ من أقوال لامارتين التنبؤية من دون التذكير بتلك المنسوبة إلى نابوليون الأول معرباً عن ندمه، ذات مساءٍ من شهر كانون الثاني/يناير ١٨١٣ في التويلوري، وبحضور الماريشال دافوست، والكونت دو لوبو والكونت دو رامبوتو، – عن لسان هذا الأخير – «لأنه لم يدركَ من قبل أهمية الموازِن التركي في القسطنطينية من أجل حرية المتوسّط.» كأنّ هذه الصفحات قد كتبت اليوم» (أتابينن، «لامارتين»، محاضرة ألقيت في ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٠ خلال الاحتفال بالذكرى المئة والخمسين لولادة لامارتين بجامعة استانبول، الأتراك الغربيون والمتوسّط، ص٤٢)؛ «إنّه (بيار لوتي) يستحلف أوروبا ألاّ تضلّلها الحملات المغرضة للدبلوماسيات القديمة التي كان من عادتها تعكير المياه لكي يتسنّى لها أن تصطاد فيها على هواها، وألاّ تسهّل عليها لعبتها، وأن تعاين بوضوحٍ وموضوعيةِ الموقفَ في الشرق، لتدبير المستقبل وفقَ ما يقتضيه احترام العدل. «إنّ الحلفاء الذين تحتاج إليهم فرنسا، كتبَ ذات يوم، هم الأتراك. فمن خلالهم نحن نمتلك مفاتيح المتوسّط وحضارته» (أتابينن، «بيار لوتي. صديق الأتراك البطل»، محاضرة ألقيت في باريس في ٣٠ حزيران/يونيو ١٩٥٠، في قصر معهد فرنسا، الأتراك الغربيون والمتوسّط، ص ٨٤) ؛

(٩) أتابينن، «أتراك وإيطاليون في المتوسّط»، محاضرة ألقيت في جامعة البندقية (Ca' Foscari) في ٧ أيار/مايو ١٩٥٢ ، الأتراك الغربيون والمتوسّط ، ص ١١٤ ؛

(١٠) أتابينن، «إسهامات تركية في الأمن والحضارة المتوسطيين»، ص ٦٧ ؛

(١١) غالباً ما ينال اليونانَ النصيبُ الأوفر من التعرض الكلامي الذي يشنّه أتابينن : «إنّ غلطة الغربيين التي يتعذّر إصلاحها، والتي ولّدت، في غضونِ قرنٍ واحد من الزمن، خمسة انقلابات شرقية وحربين عالميتين، ستكون رضوخهم لطمع اليونانيين والسلافيين الذي لا حدّ ولا رادعَ له (أتابينن، «أتراك وإيطاليون في المتوسط»، ص ١١٤)، إذ ينظر إلى هذا «الابن المدلل» لأوروبا بأنه أحد المسؤولين الرئيسيين عن النسيان، لا بل الظلم الذي طالما لحق بالأتراك: «كان كونستان، سفير فرنسا في استانبول والذي لم يكن من ذوي النزعة الهلينية سياسياً، يشاطر لوتي رأيه بشأن «هؤلاء القوم الذين يستغلّون بوقاحة سذاجة العالم، منذ ٣٠٠٠ عام» (أتابينن، «بيار لوتي...»، ص ٨٩) ؛

(١٢) لنذكّر هنا بنعتِ «الشعوب الأقلية ذات التقاليد الفوضوية» (أنظر أعلاه، حاشية ٧)؛ كما أن هذه الفقرة تعبّر عن العلاقة بين الثقافة التركية العثمانية وبين التشكيلات «الهامشية» عند الأطراف الإمبراطورية في صلبِ «حضارة متوسطية» : «مع أنها منفصلة تماماً عن الإمبراطورية العثمانية، فإنّ أقاليمنا السابقة كافّة التي استعادت، بين عامي ١٨٠٠ و ١٨٢٢، استقلالها الذاتي بفعل تدخلات أجنبية، سوف تحتفظ، بمقدارٍ ما، بطابع الحضارة التركية، وبرغم الجهود المتواصلة المبذولة من قبل النزعات القومية ومن قبل الشيوعية بغيةَ محوه. لا يمكنني الجزم بما هي الحال اليوم، ولكن قبل الحرب العالمية الأولى كان نصف العبارات المتعلّقة بالسكن والمساكن في البلقان عبارات تركية، إلى حدّ التساؤل عمّا إذا كان هؤلاء القوم قد امتلكوا حقاً مساكن ثابتة قبل عهد سيطرتنا. كذلك الأمر بالنسبة لأشكال الفولكلور الروسي والمجري والروماني والبلغاري واليوغوسلافي واليوناني والسوري والعربي والعراقي والمصري الليبي والتونسي والجزائري، والموسيقى وأنماط الرقص والطعام والزيّ والعمارة في هذه البلاد ترتبط، بفروقٍ طفيفة، بتقاليد وبعادات الأتراك العثمانيين الذين ورثوها بدورهم عن أسلافهم الأوراسيين» (أتابينن، «إسهامات تركية... »، ص ٦٥) ؛

(١٣) المقصود هنا نحو عشرين خارطة رسمها طلاب الصفّ المتوسط الثاني في مدرسة «القديس يوسف» في استانبول، خلال العام الدراسي ١٩٩٧/١٩٩٨. وكانت أعمار التلاميذ المعنيين تتراوح بين ١٣ و١٥ عاماً. يذكر أن المشروع كان ثمرة مبادرة أطلقها السيد أوليفييه غاتيه (Olivier Gaté)، الذي أتوجه إليه بالشكر هنا لتصريحه لي باستخدام هذه الخرائط. كما أتوجه بالشكر إلى السيد اتيان كويو الذي نبّهني إلى أهمية هذه الخرائط، وإلى السيّد علي أكسين الذي أعانني على الاتصال بالسيد غاتيه الذي كان، في الأثناء، قد غادر تركيا ؛

(١٤) شمس الدين سامي (فراشري)، قاموس العالم. قاموس جامع في التاريخ والجغرافيا، استانبول، ميهران، ١٣٠٦/١٨٨٩، ج١، ص ٢٦٢ ؛

(١٥) يجب أن نذكر، بصفةٍ خاصّة، أديل أيدا، التي امتهنت الدبلوماسية وزاولت التاريخ كهواية، والتي عمدت، هي، إلى تتويجِ أعمالها، بعد باكورتها : «الإيتروشيون، هل كانوا أتراكا ؟ (أنقره، ١٩٧١)، بنشرها، بعد ذلك بأربعة عشر عاماً، كتابها : «الإيتروشيون كانوا أتراكاً. البراهين» (أنقره ١٩٨٥)؛ تبادر المؤلفة إلى الإيضاح بأنّ بحثها عن الجذور التركية للإيتروشيين مستلهمٌ من الفضول التاريخي لمؤسس الجمهورية : «إنّ النظرية، بما هي نظرية، القائلة بأنّ الإيتروشيين متحدرون، في الأصل،

من تركيا، ليست جديدة كما أنها ليست نظريتي أنا. لقد كانت هي النظرية التي آمن بها مؤسس جمهوريتنا، أتاتورك، والذي نعلم جميعاً أنه كان يتذوق التاريخ والأبحاث التاريخية» («أيدا، البراهين...»، ص٣)

(١٦) أتابينن، «إسهامات تركية...»، ص ٥٠ ؛

(١٧) العبارة المذكورة ؛

(١٨) أتابينن، «أتراك وإيطاليون...»، ص ٩٧ ؛

(١٩) ١٨٩٠–١٩٧٣؛ ابن شاكر باشا الذي اغتاله عام ١٩١٤ ؛

(٢٠) اسم بودروم القديم.

(٢١) بحار وقرصان عثماني اشتهر في الغرب باسم دراغوت.

(٢٢) اسم شائع في البندقية (levante) كان يطلق على البحارة العثمانيين.

(٢٣) طبل صغير هو كناية عن غطاء من جلدِ حيوان يُشدّ على فتحة آنية من الفخّار.

(٢٤) جواد شاكر قبايتشلي ، الملقب «صياد هاليكارناس»، صباح الخير أيها المتوسط ، [1947]، ط٢، استانبول، يديتيبي، ١٩٦٢، ص ١٠٩–١١٠ ؛

(٢٥) عذرا أرهات، الرحلة البحرية الزرقاء، استانبول، تشان، ١٩٦٢، ص ٤٠–٤١ ؛

(٢٦) خطاب رئيس الوزراء، عصمت باشا، في إزمير، أثناء الاحتفال بإزاحة الستار عن النصبِ التذكاري للأمر الذي أطلقه مصطفى كمال بالوصول إلى المتوسط، ألقي الخطاب في ٢٧ تموز/يوليو ١٩٣٢، أورده مراد بيرسيل، في «Izlenimler»، Yeni Yüzyil ، ٩ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨، ص ٧ ؛

(٢٧) قبايتشلي، «Tarih ve Hellenizm» (التاريخ والنزعة الهلينية)، «Anadolu'nun Sesi» (صوت الأناضول)، [1971]، ط٣، أعدها شادان غوكوالي، أنقره، بيلغي، ١٩٨٤، ص ١٧–١٨ ؛

(٢٨) عصمت زكي أيويوغلو، «Toprağin Dili» (لغة الأرض)، «Tanri Yaratan Toprak Anadolu» (الأناضول، الأرض بارئة الآلهة)، استانبول، سينان، ١٩٧٣، ص ٢٢ ؛

(٢٩) قبايتشلي، «Adadan Adaya» (من جزيرةٍ إلى أخرى)، (آه، يا أرضي القديمة)، [1972]، ط٤ أعدّها شادان غوكوالي، أنقره، بيلغي، ١٩٨٩، ص ٣٤–٣٥ ؛

(٣٠) هذه العبارة استخدمها أتيان كويو في «من الأدرياتيكي إلى بحر الصين»، ص ٦٥٣ ؛

(٣١) قبايتشلي، «Önsöz» (مقدّمة)، «Anadolu Esfaneleri» (أساطير الأناضول)، استانبول، يديتيبي، ١٩٥٤، ص ١٢–١٣ ؛

(٣٢) صباح الدين إيويوغلو، «Bizim Anadolu» (أناضولنا)، «Mavi ve Kara. Denemeler» (الأزرق والأسود. دراسات)، استانبول، أطاتش، ١٩٦١، ص ٩–١٠ ؛

(٣٣) حركة تغريب باشرها محمود الثاني وخلفه عبد المجيد، بمرسوم التنظيمات الذي صدر عام ١٨٣٩ ؛

(٣٤) حرفياً «كنز العلوم»، وهو الاسم الذي أطلق على حركة أدبية حداثية النزعة ومتغرّبة، كان الشاعر توفيق فكرت رائدها.

(٣٥) الشاشية.

(٣٦) هو الاسم الذي عرفت به السترة (الردنغوت) التي درج الموظفون العثمانيون على ارتدائها منذ عهد التنظيمات.

(٣٧) قبايتشلي، «Önsöz» (مقدمة)، «Anadolu Esfaneleri» (أساطير أندلسية)، ص ١٢–١٣ ؛

(٣٨) الشواهد كثيرة في أعمال قبايتشلي. ربّما كان التفصيل الطريف الدالّ على هذه النزعة المعادية للهلينية يتمثل بامتناع الكاتب، تماماً، عن استخدام عبارة (Yunanistan اليونان، بالتركية) واستبدالها بلفظ Hellenistan الذي ابتكره. وسبب ذلك بسيط : فعلى المستوى الاشتقاقي Yunanistan تعني إيونيا (Ionie)، أي Anatolie (أناضول) فلا يمكن استخدامها، بحقّ، لوصف اليونان الهلينية التي لم تكن سوى انعكاس باهتٍ لها...

(٣٩) صباح الدين أيويوغلو، «Bizim Andolu» ، Mavi ve Kara . Denemeler ، ص ٩–١٠؛

(٤٠) أرهات، «Mavi Yolculuk» (الرحلة البحرية الزرقاء)، ص ٧٣–٧٤ ؛

(٤١) من أجل تحليلٍ معمّق للنزعة الأناضولية أنظر كويو، من الأدرياتيكي إلى بحر الصين، ص٦٥٣-٦٥٩. من المدهش أن نرى كيف استعيدت (أو الأحرى انتحلت) نزعة قبايتشلي ومريديه الأناضولية «اليسارية» من قبل النزعة الانتهازية لتورغوت أوزال في «مؤلفه» : تركيا في أوروبا (باريس، ١٩٨٨)، كما تبرهن عليه دراسة كويو الممتازة، المرجع المذكور، ص ٦٥٩-٦٦٦؛

(٤٢) على هذا النحو سوف يلخّص مؤلف عصمت زكي أيوبوغلو، الحائر بين البيان والشهادة، جوهر هذا التيار الفكري. وهو جوهر لم يستبق شيئاً من المتوسطية برغم احتفاظه بصفة «الأزرق» : «إنّ الفكرة القائلة بأن الأناضول هو مجالٌ مبدعٌ لأناسٍ عاشوا منذ الأزمنة السحيقة حتّى أيامنا، وبأنّ نتاج تفكيرهم وإبداعهم الفني يرقى إلى فجر العصور وليس مصدرها الخارج، لم يؤتَ بها من الخارج، هي فكرة جديدة. نحن نسميها اليوم الخاطرة الزرقاء أو الأناضول الأزرق. الخاطرة الزرقاء، أو الأناضول الأزرق هو تيار فكري يرى تاريخ الأناضول بكليّته، ويؤمن بوجودِ رابط ثقافي لا فكاكَ منه يصل الحاضر بالماضي الأبعد للأناضول ويدافع عن صدقية هذا الرابط. إنّ الذين ابتكروا ودافعوا عن هذه الفكرة هم أرواح شقيقة كصياد هاليكارناس وصباح الدين أيوبوغلو وعذرا أرهات ووداد غونيول. وآخر من انضم إليهم هو كاتب هذه السطور. كلّ الهداية هي صنيع المثقفين الأربعة ؛ والخامس ليس سوى رسول. إنّ رؤية الغربيين المنحرفة التي كانت تجعل من الأناضول، قبل أربعين عاماً من اليوم، ابناً بالتبنّي لليونان القديمة قد تغيّرت ، منذ ذلك الحين، جذرياً. لقد بات واضحاً اليوم أن الأناضول هو مهد الحضارة الغربية وأن الغرب هو ابن الأناضول» (عصمت زكي أيوبوغلو، «Sonuç» (خاتمة)، Anadolu ، Tanri Yaratan Toprak ص ٣٨٥-٣٨٦).

(٤٣) إنّ عبارة «مستنير» (Aydin) هي عبارة أساسية في المجتمع التركي الذي يستخدمها ترجمةً لعبارة «مثقّف»، ولكنْ مضيفاً إليها معنى تقدمياً وتمدينياً ذا ثقلٍ لا يستهان به. يبدو واضحاً أن هذه العبارة هي نقل مباشر من فلسفة الأنوار – بحسب تفسيرات الانتلجنسيا التركية والكمالية الشابة.

(٤٤) هذه، خصوصاً، حال فريدة تشيتشيكوغلو – وهي كاتبة تركية مشاركة في هذا البرنامج – وكتابها «في الجهة المقابلة من البحر»، استانبول، كان، ١٩٩٤ ؛

(٤٥) مثل نموذجي عن ذلك سلسلة «بحرنا» (Marenostrum)، الصادرة في

أواخر الثمانينات عن منشورات بلغي (Belge) والتي اشتملت على عدد لا بأس به من المؤلفات المكرّسة للثقافة «الكوسموبوليتية» في الأناضول. خلال مقابلة أجريت معه مؤخراً (Cumhuriyet Dergi ، العدد ٦٥٠، ٦ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨ ، ص١، ٤-٦)، أجاب مطلق السلسلة، راغب زراقولو، بهذه العبارات عن سؤال «لماذا Marenostrum ؟» : «على الرغم من أننا كنا نحيا على تراكمٍ ثقافيٍ بالغ الثراء، في منطقةٍ كانت هي مصدر الحضارة، فإننا بدلَ أن نتمثله ونتملّكه، رحنا نفكّر على نحو قولنا «لقد جئنا عام ١٠٧١». مع أن عدداً من المثقفين أشار إلى هذا الواقع : صباح الدين أيوبوغلو، صيّاد هاليكارناس، أكرم أكورغال... هذه الثقافة هي نتاج بشرٍ على قدرٍ كبيرٍ من التنوّع، وكنّا نتشاجر فيما بيننا دونما سبب، عاجزين عن تقاسم قره قوز،والعمارة أو فنّ الطبخ. غير أننا كنا نستطيع أن نجعل من بلدنا بوتقة سلام انطلاقاً من هذه النقاط المشتركة». أي أن اسم «Marenostrum» ، المحرّف عن معناه التاريخي، ليس معتمداً هنا إلا في معناه الحرفي لكي يستخدم كأساسٍ للمصالحة بين عناصر عاشت معاً على الأرض العثمانية ولإعادة الاعتبار للفردوس المفقود. إنه على هذا النحو غرضٌ محمودٌ، مشبع بفلسفة «الصيّاد» «الزرقاء»، غير أنه أقل متوسطية مما قد يوحي به اسم السلسلة.

فريده تشيتشيكوغلو

متوسّطية ؟

ترجمه عن الفرنسية بسام حجّار

حلقة أولى

– من المؤكّد أنّ مثل هذه الهوية موجودة !

– سوى أنها محض اختلاق، خيالٌ بحت

– لا، إنها نابعة من الجغرافيا والتاريخ

– ليس هناك تاريخٌ واحد. فعن أي تاريخ تتكلّمين ؟

– هل تعلمين تلك الطرفة القديمة حول «قصّته»[1]... وماذا عن الجغرافيا ؟ أنتِ لا تستطيعين الزعم بأنّ هناك أكثر من جغرافيا واحدة، أليس كذلك ؟

– لم تكن الجغرافيا موجودة حتّى خطّت الخرائط، أو حتّى جرى طبعها. فهل من الضروري أن أذكرك بأنها طبعت أولاً ؟

– هل تحتاجين إلى خرائط لكي تبصري لون البحر، لكي تشمّي عطر الجبال، لكي تستسيغي

طعمَ ما تأكلين، وما تشربين ؟

– كلامك شاعريّ، أعترف بذلك ! وإذا كان لوناً فما عساه يكون ؟ «الأزرق». إذا كان عطراً ؟ «الصعتر». إذا كان نبتة ؟ «شجرة الزيتون». إذا كان شراباً كحولياً ؟ «النبيذ، طبعاً». حسنٌ جداً، منتهى الغنائية، أشبه برطانة «كلوب ميد»[2] أشبه بالكيتش، وبالمجان، إذا جاز لي القول.

– أجد صعوبةً في التيقن مما إذا كانت هذه هي فكرتكِ عن الموضوع أو إذا كنتِ تسعين ببساطة لأن تظهري بمظهر المثقفة. هذا التشبيه بالكلوب ميد... ألا تستعيرينَ هنا بعضاً من أقوال باموك (Pamuk)[3] ؟ أليس هذا، بالضبط، ما يقوله عندما يتكلّم على

«المتوسّط» بوصفه تذكرةً من الدرجة الثانية إلى العالم الغربي مخصّصةً للكتّاب الأتراك ؟ غير أنه يضيف، لحسن الحظّ، أنّ هذا أفضل بكثير من احتمال ألاّ تكون هناك رحلة على الإطلاق... إذاً ما الخطب في رطانة «الكلوب ميد» هذه ؟

– لا أستطيع أن أفهم لِمَ ينبغي أن تفضي بكِ كلّ تذاكر السفر إلى الغرب، وبرحلة ذهابٍ فقط. وأنتِ ما رأيك بتذكرة ذهاب وإياب ؟

– من قال إنّ «المتوسّط» يعني باتجاه الغرب. فهل يقع لبنان ومصر وتونس والجزائر ... باتجاه الغرب ؟ إنها لا تقع لا في الغرب ولا في الشمال. بل في الجنوب وفي الشرق...

– غير أني نادراً ما أسمع أنّ الجزائر توصف بأنها «متوسطية»، إلاّ تيمناً بكامو، أو الإسكندرية تيمناً بموستاكي، وداريل – وفي كلّ مرّة بلمسةٍ من «الغريب»، و «أحوال الطقس». غريبٌ، أين ؟ في فرنسا ؟ لا، فالحقيقة أن من شأن الكلام على غريبٍ ما أن يكون أكثر رواجاً في الجزائر أو في الإسكندرية منه في فرنسا أو بريطانيا العظمى...

– لعلّ شعور المرء بأنه ليس في وطنه في أي مكان، شعوره بأنه دائماً سائرٌ على الدربِ، هو جوهر هذه الهوية... هوية أشعر بأني أنتمي إليها. هوية كان من شأنها أيضاً أن تنشأ عن موجات الهجرة المتتالية، والإبحار على متن السفن الشراعية من يابسةٍ إلى أخرى، عبر البحر، عبر هذا البحر الذي يصل ما بين الأراضي، الذي يحيط بها، «البحر الذي يقع بين أقاليم اليابسة»، البحر الذي يوحّد أكثر مما يفرّق. ربّما كان راسخاً في لاوعينا الجمعيّ أن نبحرَ في مياه البحر بدلَ أن نقيمَ جذورنا العميقة على اليابسة. إنّ الشعور بالعومِ، بالإبحار، هو، وحده، الذي يمنحنا هذا الشعور بالانتماء.

– ربّما أمكننا أن نردّ هذا الشعور إلى كونك من برج الدلو وليس إلى أسلافك البحارة، إذا كنتِ مصرّة على إيجاد تفسيرات لكلامك المشوّش. أليس مثيراً للفضول أنكِ تسعين وراء مجازٍ للسفرِ

مقرونٍ بالمجاذيف لا بالخيول، كمثلِ عوليسٍ عصريّ، وبه، كما بمحض المصادفة، تتقرّبين من الثقافة الغربية، أو، في الأقلّ، من أحد جذورها ؟ أهي مجرّد مصادفة أنك دائماً تجدين نفسك، في آخر المطاف، سالكةً باتجاه الغرب مهما كانت وسيلة النقل، أكانت حصاناً أم عربةً أم مركباً ضيقاً، وإن كنتُ أرتاب بشأن هذا الأخير، باعتبار أن شعبنا، حتّى في منازله المجاورة للبحر، يولي البحر ظهره لكي يحدّقَ بالجدران... وطبعاً أنت تعرفين الدعابة التي راجت بشأن أسلافنا الذين أسموا أوّل سمكة اصطادوها «سمكة السيف» و «سمكة الكبش» على غرار تعابير «فنهم الرئيسي».

– إذا كنتِ تلمّحين إلى أولئك الأسلاف الذائعي الصيت الذين أتوا ممتطين جيادهم من مكانٍ ما في آسيا الوسطى، فإنّك تقعين في شركِ فرضيّتكِ نفسها لأنّ حقيقة التوجّه نحو الغرب تغدو جزءاً لا يتجزأ من ميراثي... أما كانوا يتجهون «نحو الغرب» منذ البداية الأولى ؟ ولعلّنا، إذا شئنا أن نعثر على جذورنا في مكانٍ ما، نعثر عليها في هذا الشعور بالتقدّم نحو الغرب الذي يشكّل الهدف الجوهري والأبدي «لشعبي».

– يا لسخرية القدر : فعلى الضدّ من غايته الأبدية، إنّ مصير شعبك هو الاستبعاد من قبل الغرب. فما من قبيلةٍ شرقية أخرى أبدت مثل هذا التصميم، مثل هذا العناد في الغزو والرغبة في أن تكون غير ما كانت عليه، عبر العصور والقرون، وحقب التاريخ وأجيال البشر، عبر الإمبراطوريات والجمهوريات.

– لا أهوى الكلام على الماضي والمستقبل بمصطلحاتِ الفئاتِ (الفلسفية) أو التجريد. أين يقع الشرق وأين يقع الغرب ؟ هل هما موجودان حقّاً خارجَ رؤوسنا ؟ من يستطيع القول إنّ الخطّ الفاصل بين حدود الغرب وحدود الشرق تمرّ بهذا المحيط أو بذاك ؟ إنّه أمر مجرّد، غير ملموس، ويفوق في تجريديته كلّ الخرائط التي جرى طبعها ! أنا، إذا كنتِ تدركين ما أعني، أفضّل أن أقصر الكلامَ على ذاتِ نفسي، على ذات نفسي وعلى ما أشعر به. لا فئات ولا مجرّدات،

لا ماضٍ ولا مستقبل. فقط أنا واللحظة الراهنة. إنّه الواقع الوحيد الذي أعرفه ويتطابق، لحسن المصادفة، في هذه اللحظة مع «الأزرق والصعتر وشجرة الزيتون والنبيذ»، مهما بدا الأمر ساذجاً.

– «اللحظة الراهنة»... إنها، في نظرك، الكلمة الجوهرية، أليس كذلك ؟ في اللحظة التي تلي قد تجدين نفسك متوسّلةً الفئات الأشدّ صرامة من بين الفئات لكي تعلّلي، كما سبقَ لك أن فعلت في الماضي، وإلاّ ماذا تكون الماركسية حقّاً إن لم تكن سيمفونية مجرّداتٍ وفئاتٍ فلسفية ؟ كما، بمحض المصادفة، كانت عليه حال ماركس، التَعِس، كاتب السناريو الأسوأ حظّاً من بين الذين عرفهم التاريخ قاطبةً (فيلم تافه مبنيٌ على سيناريو على هذا القدر من الإبداع) ولكنّ إنتاج فيلمٍ لا يتمّ، طبعاً، على أساسِ ما هو «فوري»، بل ما يقيمُ على المدى الطويل، تماماً كتأليف رواية ولذلك...

– لذلك أكتفي بتأليف القصص القصيرة. لا يعلم أحد منا ما يقدر عليه إلاّ عندما يتمكّن من معرفة نفسه على نحو أفضل وهذا ما أدركته عندما اتضحَ لي أن تشكيل شخصيّتي كان نابعاً تلقائياً من جذوري الجغرافية. لحظاتٌ ينبغي أن تتلقّفها الكلمات، وينبغي أن تتحقّق بأفضلِ ما في الشعر (فلطالما كان الأمر، عبر التاريخ، على هذا النحو، وخاصّة في هذا الموقع الجغرافي حيث «البحر بلون النبيذ» وحيث «الفجر ذو أصابع زهرية») ولكن بما أن سيل كلماتي متدفّقٌ وتعوزني الأناةُ للتخلّص من القدر الكافي من الكلمات لبلوغِ الشعر، استعضتُ عن الشعر بالقصص القصيرة التي تحسنُ التعبير عن التقلّبات المفاجئة للشمس والظلّ، للألوانِ المشرقة والأهازيج الفَرِحَة : عالمٌ حسّي من التقلبات المباغتة ومن قصص الحبّ الزائلة... ذلك أن الروايات والمسرحيات والسيناريوات المحكمة البناء تنتمي إلى نور الشمال الباهت، إلى منهل العقول العويصة والأفكار السرية، إلى المطوّلات من الأحاديث الأخلاقية والفلسفية عندما يكون الجوّ ملبّداً وممطراً في الخارج، فيما نار المدفأة متوقّدة في حجرة الاستقبال... إنّ روحي تنتمي إلى الشمس،

صدّقيني، وليس إلى «بيت دميةٍ» إبسن أو إلى مناقشاتِ جويس في مواقيت العشاء.

– أودّ أن أذكّركِ بأنك كنت شديدة التأثّر في مرفأ هامبورغ، في نور الشمال الواهن وضباب الثلج الخفيف، وكنت تقولين في سرّك «آهِ كم هذه الألوان تعبّر عن مكنون روحي !» وليس هذا فقط، بل أيضاً ساكسوفونات غاريباريك... لا يسعك أن تنكري بأنّكِ تجدين فيها موسيقى روحك... وهي لا تحتوي على أنغام أهازيج الجنوب الفرحة ! فهل أنا مخطئة ؟

– من قال أن ليس في موسيقى غاريباريك أي نغمٍ من جذورنا الجغرافية ؟ فكيف يستطيع أن يعمل مع كارايندرو إذا كانت خاليةً منها تماماً ؟ إنّ موسيقى أليني هي الأصدق في التعبير عن روحي... ولا تنسي بأني سافرت من الساحل الشرقي إلى الساحل الغربي، وأني قطعت المسافة كلّها من فيلادلفيا إلى كاليفورنيا، فقط لكي أشاهد أشجار النخيل والقرميد الأحمر، بلى، القرميد الأحمر، قرميد مرسيليا، تلك الألوان الحارّة المقيمة في جغرافية أعماقي...

– بلى أذكر هذا. لكني أذكر أيضاً أنك اكتشفتِ جغرافية أعماقكِ في عزلة ذاك الرادار، على متن سفينة الشحن في هامبورغ، تلك التي كانت تدور بلا توقّف تحت الثلج، وما من لونٍ يلوح في الأفق، ما من حركة، فقط أنتِ على المرفأ، محتسيةً الكونياك، باكيةً، متماهيةً بالرادار. ذلك السكون، تلك الدكنة، ذلك الباب المشرع باتجاه بحارٍ بعيدة باتجاه المصير المجهول... «إنه لون روحي» قلتِ. فكم روحاً لكِ إذاً ؟

– لديّ اثنتان على الأقل، وأنت واحدة منهما ! ألا نسافر دائماً سعياً لاكتشاف الأنا الآخر الذي في أعماقنا ؟ ألم تكن تلك حال توماس مان الذي انطلاقاً من هامبورغ بلغَ «الموت في البندقية» ؟ لو أني أمتلك قدراً كافياً من الموهبة لكتبت «الولادة في هامبورغ»

ولكان بمثلِ مأسوية «الموت في البندقية». ولكن طبعاً ينبغي أن تكون توماس مان لكي تؤلّفَ تحفةً أدبية عبر الغوص في جغرافية أعماقه مع ما يرافقها من تقلّبات النور. ذلك أن تقلّبات النور هي التي تفتنني. ولأني لا أجيد الرسم بالألوان أرسم بالكلمات. دائماً العين هي الأكثر تنبّهاً، تبصر قدراً أكبر من التفاصيل، في ظلّ نورٍ غريبٍ عنها. وهذا الأمر لا يعني أنّك لا تحملين في أعماق ذاتك نورَك الخاص، درجة اللون الخاصّة بك (لون القرميد مثلاً) حيثما حللتِ. نحن جميعاً نمتلك أرواحاً متعدّدة. ويبقى السؤال هو أن نعلم إذا كنّا نعي ذلك. وإذا كنا ندرك ذلك، يبقى السؤال إذا كنا قادرين على إقامة الفارق بيننا وبين تلك الروح التي تتيح لنا أن نبدع. إنّها، في نظري، تتصل بالانفعال لا بالذهن، وتحيا في كنف الشمس لا الضباب، وتجد انعكاسها في الزرقة لا في الرمادي... إنها أنا.

– أرى أنك استبطنتِ هذه الهوية على أنها «أنت» من دون أن تعي، حقاً، أنها، على نحوٍ أو آخر، قد نفثَت فيك. إنها أشبه بالدُّرْجة، وككلّ دُرْجة لا شكّ في أنها لا تنفصل عن جذورها الاقتصادية والسياسية... كلّ هذه الأسطورة، هذا الافتتان أمام «اللحظة»، والشمس و«البحر» (بألف لام التعريف، إن سمحت، من دون ذكرِ لاسمِ هذا البحر، فهل يعقل أن نأتي على ذكر بحر آخر؟) بوصفه مهداً لكلّ حضارة، هي جزء لا يتجزّأ من رطانةٍ فكرية عالمية ؛ ما يذكرني، على نحوٍ ما، بالموجة الجديدة في السينما الفرنسية. «إني أفضلها على هوليوود»، قد تقولين، وهو أمر أتفهّمه جيداً، غير أني أعتقد أن أعمال بروديل لا يمثّل في نظرك شيئاً يتعدّى فيلم تروفو «جول وجيم»... من يبدعون ومن يتملّكون «البحر» و «الحضارة»... عليك بقراءة بروديل... فتعلمي من يكون هؤلاء. قد يدعوك هؤلاء للانضمام إليهم ولكن لا تنسي أنك «الآخر» بالنسبة إليهم (وربّما هم أكثر من سواهم). لقد شهد تاريخنا حقباً، في الخمسينات والستينات، حاول خلالها مثقفونا، وبأحسن النوايا الممكنة، أن يصوغوا تحليلاتٍ جديدة لتاريخنا لكي يخلصوا إلى القول إنّه

لطالما كان «رحلةً زرقاء» من دون أن يكون ذلك، برغم كلّ شيء، كافياً للإبحار على متن مركب. إنها ليست «أفكاراً زرقاء» بل هي «أفكار سوداء» تلك التي ستتلقينها كردٍّ على جهودك الحثيثة التي تبذل لتحليل حقيقة أنك تستحقين أن تكوني على متن المركب.

– أليس من قبيل السخرية أنك، في معرض انتقاد ميلي الواضح إلى قبول دعواتٍ، تستخدمين، أنت نفسك، قاموساً زاهياً من المؤكّد أنك لستِ مدعوةً إليه ؟

– هذا مثل ساطع على أسلوب النقاش المعتمد من قبل أهل «الجنوب» : انفعال وعدوانية... إهانة الآخر عِوضَ الإقناع بالحجّة.

– إذا كان حقّاً ما تقولين، فاسمحي لي أن أقول لك أنك، أنتِ أيضاً، كنت مستفيدة من هذه الوسيلة الناجعة مع فرقٍ وحيدٍ وهو أنك استخدمتها بقدرٍ أكبر من الذكاء والبراعة، مشدّدة، على جري عادتك، على الفروق المختلفة للّون الرمادي. وفضلاً عن ذلك ألسنا، جميعاً، في آخر المطاف، بشراً، من الشمال أو من الجنوب، من الغرب أو من الشرق : وإلاّ كيف أمكن للاعتراف بالفنّ أن يكون قيمةً جامعة أو حتّى... ؟

– أو حتّى العولمة، بالطبع !

– تقولين هذا بنبرةٍ سخرية، فيما يبدو لي أنّك، من بيننا نحن الاثنتين، هي التي من شأنها أن تنافحَ عن العولمة. لقد بدأتُ بالإقليمي، ولا أقصد بذلك الإقليمي بالمعنى المعتاد للعبارة بل المنطقة الأكثر اتساعاً من البحر... مهلاً قليلاً، لقد التبس عليّ الأمر هنا... كأنّ الأدوار قد غدت معكوسة و...

– وأنّه آنَ أوان الاعترافات ! هيّا أسرّي باعترافاتك وغيّري وجهة نظرك. اكتفي بالقول إنّ اللحظة الماضية باتت تشكّل جزءاً من الماضي وأنها ما عادت تقيّدك. أمرٌ هيّن، صدّقيني. ولا تشغلي بالك، فخطابك ما زال متماسكاً. إنّ اختلاط الأمر عليك هو البرهان

على تماسك خطابك. ألستِ أنتِ من تنافحين عن اللحظة ؟ الفوريّ لا بدّ أن يختتَم باعتراف. ليست مصادفة أن يكون هذا ما يفرّق بين الجنوب والشمال... الحدّ الرئيسي، كما لو أنه صدعٌ، الذي يفصل الجنوب الكاثوليكي عن الشمال البروتستنتي.

– لا تقولي لي بأنني كاثوليكية من دون أن أعلم ؟!

– الأحرى أن تكوني أرثوذكسية باعتبار المنطقة التي تتحدرين منها... وهو أمر ليس بالمستحيل إطلاقاً، لو أنّ محمّد «الفاتح» قد تبنّى ديانة أمّه، وهو الأمر الذي فكّر ملياً بأن يقدم عليه. غير أن هذا من شأنه أن يجعل موقعكِ على أطراف جنوب وشرق المسيحية، وتالياً، على أطراف العالم الغربي؛ ودائماً لن تحظي، برغم ذلك، بأفضل من تذكرة سفر من الدرجة الثانية أو الثالثة، صدّقيني... سوف أسرد على مسامعكِ طرفة : خلال مأدبة عشاء كوسموبوليتية، سألني الجالس بجواري إذا كنت قادرة على بيان الفرقِ بين البروتستانت والكاثوليك. طبعاً أجبته «لا»، فكيف يسعني أن أفعل ؟ (وللمناسبة كان السائل هولندياً). لكنّه ألحّ عليّ قائلاً : «ألقي نظرة على من حولك وخمّني. وأضمن لك أن نسبة الخطأ الذي ستقعين به لن يتجاوز الخمسة في المئة». كان هناك نحو خمسين شخصاً جالسين إلى المائدة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها معظمهم، حتّى أني ما كنت أعلم إذا كانوا جميعاً من المسيحيين... حاولت أن أتهرّب : «وماذا عن الملحدين بينهم ؟»، «اعتبريهم من البروتستانت»، أجاب محدّثي.

– إذاً، هل يجعلني هذا بروتستانتية ؟

– لا تقلقي، فهذا لن يصيب منكَ سوى «روحك الهامبورغية». ولكي أتابع قصّتي أقول لكِ إني، من دون أن أعلم ما هي المعايير التي أعتمدها، رحت أنظر إلى الناس من حولي، فرأيت رجلاً طويل القامة نحيلها، وهو يحتسي نبيذه بتؤدّة بجرعاتٍ صغيرة من كأس أنيقة، مبدياً، بخفر، بعض التقزّز إزاء جاره السمين الذي،

بابتسامةٍ ساذجةٍ، ينهمك بالتقاط قطعة كبيرة من لحم الخنزير بشوكته... «الأول بروتستانتي، والآخر كاثوليكي» قلت له. «أرأيتِ ؟ لقد اهتديتِ إلى الطريقة»، قال الهولنديّ بنبرة تفاخر. كنت أدرك طبعاً أن أحدهما قادمٌ من الشمال حاملاً في ذاته قسّه الأبدي، فيما الآخر قادمٌ من الجنوب، متمتّعاً بحياته قبل أن يقصد الكاهن فيخلّصه سرّ الاعتراف من خطاياه، لكي يعيد الكرّة.

– ولكن مهلاً ! ماذا لو كان هناك مسلمون أو يهود من بين الجالسين إلى الطاولة ؟ فإذ ذاك كيف تصنّفينهم ؟ وبأيّ خانة تضعينهم ؟

– لا أصنّفهم في أي خانة ! فكيف يعقل أن يكونوا حاضرين حول مائدة يقدّم عليها لحم الخنزير والنبيذ ؟ إنّه خطّ التماس الآخر، والذي ليس هو في الحقيقة سوى «بحرك». أفلا ترين، حقّاً، أن بحرك لا يوحّد بل يفرّق ؟ البحر هو «التوسّط» بين «أرضين» تمثلان سلوكين مختلفين تماماً حيال لحم الخنزير والنبيذ.

– هذا سعي لجعل الأمور أبسط بكثير مما عليه حقاً، وحتّى لو كان دعابة، فإنّ مثل هذا التعليق لن يكون مقبولاً إلاّ بصدوره عنّي أنا – إذ قد يغفر مثل هذا لكائن الانفعالات واللحظة الآنية – أمّا أنتِ التي تزعمين أنكِ منحازة إلى العقل وليس إلى الانفعال، فلا يحقّ لك أن تقيمي تماثلاتٍ على هذا القدر من السذاجة. للوهلة الأولى قد تبدو خارطتك للخنزير والنبيذ على قدرٍ من الفطنة، ولكن ألا ترين بأنّ أرضنا لا يمكن أن تعثر فيها على مكان ؟ فقد شاءت المصادفات الجغرافية أن تقع إلى شمال البحر، ومع ذلك فإنّ خارطتك تجعلها في الجنوب مع الذين يرون أن لحم الخنزير والنبيذ هما خطيئة.

– وفّري على نفسكِ الجهد، فأرضنا تميل إلى الوقوع شرقاً ما يكفي لاعتبارها واقعةً في الجنوب !

– مثل هذه الحجّة كانت لتوصف، فيما مضى، بالدهمائية،

ولكنْ دعينا من كلّ هذا... هل لي أن أعلم إذاً، أين موضعي أنا في هذه القائمة ؟ شخص وافدٌ مما يكفي من الشرق لكي يكون وافداً من الجنوب، ومع ذلك يستسيغ لحم الخنزير والنبيذ ؟ أليس ذلك هو البرهان على أننا لا ينبغي أن نقيم الفئات والتعميمات، بل علينا الكلام على حقيقتنا الشخصية، وانفعالاتنا، ولحظتنا الآنية ؟

– إنّي شديدة الأسف لأني خيّبت آمالك، ولكن ما تقولينه هو البرهان التام على نظريتي القائلة بأنّ تذاكر السفر إلى عالم «الحضارة »، بالخطّ العريض، ينبغي أن تحمل أختامَ هذا العالم. أكل لحم الخنزير، احتساء النبيذ، إجادة لغتهم، هذه كلّها مفاتيح لا غنى عنها لكي نحظى بالقبول، وإن كان الختم ليس دائماً هو ختم الدرجة الأولى. فإذا ما قرّرت يوماً أن تكتبي عن الحروب الصليبية، من وجهة نظر «شرقية»، فالأحرى أن تكتبي بلغةٍ غربية إذا شئتِ أن تحظي بالاعتراف. كوني واثقةً أولاً من أن تنال اهتمام الصليبيين أنفسهم. وللمناسبة، هل لاحظتِ أن المجد يكون أيسر منالاً إذا كانت أعمالك تخاطب المُضطَهدِين وبلغتهم ؟

– أعلم أنكِ تلمّحين إلى أمين معلوف، من بين آخرين، غير أني أزعم أنّ خرافة «المضطهد والضحية» هذه لا تشكّل سوى فئة منمّطةٍ أخرى وهي، بالأحرى، مفيدة للضحية المزعومة. إنّ ذهنية الضحية تتيح لك التحرّر من عبءِ المبادرة الثقيل. ومعنى أن تكون ضحية هو شرط مسبق أكثر منه عاقبة. وعلى الضدّ مما يذهب إليه كثير من الناس، إنني أرى أن من يعتبرون أنفسهم ضحايا إنما يؤيدون ويحافظون على وجود المضطَهِدين، كما تقولين، وإن كنتُ أشكّك، بأية حال، بحقيقة هذه الفئات. فمن أيسر الأمور التستّر وراء رطانة من قبيل «الإمبرياليين الأوغاد» أو «المستعمرين المضطهدين». أمّا بالنسبة لأمين معلوف، بلى، ربّما كان جمهور قرائه أقلّ لو أنه لم يكتب بالفرنسية، ولكن ماذا يثبت هذا الافتراض ؟

– إني أرى أن ذلك يثبت بأنّ أسطورة المتوسّط تحمل، من دون

شكّ، وسمةً لاتينية. ومتاحٌ للعالم العربي بلوغها أكثر منكِ أو من اليهودي. فإذا كنتِ قادمةً من بيروت أو من الدار البيضاء، فالمؤكّد أن حظّك في أن تكوني مقبولةً على متن المركب أوفر مما لو كنتِ من استانبول أو تل أبيب. وخاصّةً إذا كنتِ تكتبين بالفرنسية !

– دائماً تشدّدين على خطوط الفصل والفئات التاريخية بدل السعي لتعظيم طاقة الفرد، بصرف النظر عن المكان الذي ينتمي أو تنتمي إليه. فقد يكون الفرد أحياناً على قدرٍ من الغنى يتيح له ألاّ يصنّف بوضوحٍ ضمن فئة متعيّنة. وإذا كنتِ تسعين إلى حتّى على قولةِ «نحن»، فدعيني أقول لكِ أنّ حتّى هذه «النحن» هي شديدة التناقض. فالبعض يرى أننا ورثة التاريخ العثماني، المضطهد الرئيسي للجغرافيا المتوسطية. آخرون يرون أننا حالياً البلد المبتلى بالمشكلات الذي يبقى، في كلّ عقدٍ، تحت نظام حكمٍ عسكري والذي يصدّر اللاجئين السياسيين... لذا فأيّ الصورتين تنطبق «علينا»، إن لم أقل أيهما تنطبق «عليّ أنا» ؟ لذلك لا تتمكّن التعميمات قطّ من إعطاء صورةٍ أمينةٍ للواقع. أنتِ تهتمين بالتعميمات وأنا لا أوافقك الرأي. إني أفضّل الاستثناءات وهويةً ترفض التصنيفات السياسية والإيديولوجية.

– ما تسمينه «استثناء» ليس أكثر من وجهة نظر أخرى سياسية وإيديولوجية. اسمعي ما يلي : «إنّ ما يهدّد المتوسّط وما سيجعله معزولاً ليس سوى انزلاق مركز العالم، من البحر الداخلي باتجاه المحيط الأطلسي. ولقد بدأ هذا الانزلاق مع اكتشاف أميركا عام ١٤٩٢... ومنذ ذلك الحين، لم تجرِ إعادة البحر الداخلي إلى البلدان التي تحيط به... إلى ضفّته... »، ألا يذكّرك هذا القول بشيءٍ ما ؟ إنه قول لبروديل. أتراه رائداً ما لهذا «السلم الروماني» الجديد ؟ هذا البديل المعاصر للسيطرة الأنكلوساكسونية على منطقة المتوسّط... ضدّ «السلم البريطاني» الذي كان سائداً في القرن المنصرم، و «السلم الأميركي» السائد في هذا القرن... يقتبس بروديل عن موريس أيمار (Maurice Aymard) الذي قال : «إنّ قناة

السويس هي رمز التقويض السياسي للعالم المتوسّطي». هذه القناة التي بناها الفرنسيون، وقعت في أيدي البريطانيين في أواخر القرن المنصرم. وكان ذلك، في نظر بروديل، آخر الضربات القاضية التي تلقاها المتوسّط. وكان هذا المسار الذي بدأ في العام ١٤٩٢ يشارف على نهايته. واليوم، في الربع الأخير من القرن العشرين، أهي محض مصادفة أن يصدر السعي لنهضة «الضفّة» عن فرنسا ؟ هل تعلمين بمَ يسمّي بروديل البلدان الممتدة من المغرب إلى تركيا ؟ «المتوسّط الآخر». ويحقّ ! فمع مراكب المهاجرين غير الشرعيين الوافدة من المغرب وألبانيا وتركيا والتي يتمّ إغراقها فيما تحاول الهروب من «الضفة» الجنوبية إلى «الضفة» الشمالية، كيف يمكن ألا يكون هناك سوى هوية واحدة، فقط واحدة ؟ هكذا يغدو مهد الحضارات لا يعني، حرفياً، الحياةَ بل الموت بالنسبة للبعض، وليس في هذا القول أي مجاز ممكن : ألا تدركين ذلك ؟

– ربّما كان علينا أن نغيّر جغرافية مصطلحاتنا لأنّ نقاشنا يبدو عقيماً وقد شرعنا في رسم حلقات فلسفية مفرغة. فماذا لو استعنا بالتاوية، وبرسمها التخطيطي للين (Yin) واليانغ (Yang)، وهو الرسم المتوازي بامتياز. فالخطّ السينيّ الذي يقسم الدائرة إلى حيّزين هو محيط مشترك للين واليانغ في آنٍ معاً. إنه يفرّق ويوحّد. ويمثّل التفاعل بين القوتين حول مركزٍ ثابت. مؤنث/مذكّر، واضح/غامض، خير/شرّ الأرض/السماء، الولادة/الموت، الألم/اللذة... وفي إطار نقاشنا هل يمكن القول إنّ الدائرة تمثّل المتوسّط فيما يمثّل الخطّ السيني المحيط المشترك للشمال والجنوب ؟ أنتِ تفضلين كسرَ الدائرة على طول الخطّ، أما أنا فأرى إلى الدائرة ككلّ. هل بإمكانك الزعمَ بأنّ الجنوب، من جهته، لا يعلّم الشمال شيئاً ولا يغنيه بشيء ؟ ثمّ أنّ ما يعنيني حقاً هو أن أشكّل وحدةً مع أولئك الذين يشعرون، سواء كانوا من الشمال أو من الجنوب، بأنهم غرباء أينما حلّوا، ويحملون في أعماق ذواتهم الخطّ السيني بوصفهم أفراداً والذين يغتنون بهذين الاضطراب والتشوّش الدائمين في أرواحهم واللذين يتنقلون بهما من روحٍ إلى روح، كلّ

يوم، وكلّ هنيهة. إني أرى هذا التفاعل أمراً إيجابياً وليس سلبياً. هل بإمكانك التأكيد بأنّ الشمال طالحٌ والجنوب صالحٌ ؟ هل بإمكانك حتّى الزعم بأن الشمال أو الجنوب، كلّ على حدةٍ، من شأنه أن يشكّل كلاً ؟ فإلى أي كلّ تنتمي إسرائيل، على سبيل المثال ؟

– سؤال في محلّه ! فعلى الرغم من أن بروديل يفتتح حججه الداعية إلى توحيد المتوسّط مستنداً إلى وحدانية الله في هذا الحيّز الجغرافي، فإنّ إسرائيل ليست جزءاً من معجم مصطلحاته. فلأي سبب تراه فعل ذلك ؟

– إنّ غايتك هي حثّي على القول إنّ وجهة نظره سياسية وإنه لم يكن راغباً في إغضاب العالم العربي، ولكن ينبغي ألاّ تنسي أنّ في إحدى دراسات هذه المجموعة، التي كتبها أيمار، ذكراً صريحاً لهذه المسألة. يقول أيمار إنّ النزاع المعاصر الأكثر مدعاةً للأسف في هذه المنطقة يتمثّل بحالة إسرائيل. فعلى الرغم من أنّ وجود إسرائيل يُنظر إليه في الشرق الأوسط بأسره على أنه وجود أجنبي مفروض بالقوة، فإنّ التناقض الفعلي الذي يكشف طابعاً جوهرياً من الواقع المتوسّطي، يكمن في أن الشعب اليهودي قد تعيّن عليه أن يحيا خارج بلده منذ أن عمد الإمبراطور الروماني أدريان إلى طرده من فلسطين عام ١٣٣.

– هل يعني هذا أنك تجمل إسرائيل ضمن مفهومك «للأزرق» ؟

– ليس أنا من يفعل، بل الجغرافيا. ولِمَ لا، في آخر الأمر ؟ فمن الأيسر بالنسبة لي أن أتماهى مع امرأة إسرائيلية تعي الخطّ السيني الكامنِ في أعماق ذاتها، من أن أتماهى مع تركيّ يحسب نفسه صلباً مثل قطعة رخام.

– أهي زلّة لسانٍ منكِ أن تتماهي مع امرأة اسرائيلية عوضَ التماهي مع إنسانٍ فلسطيني، على سبيل المثال ؟

– لا، ليست زلّة لسان... بل مجرّد تذكار مبهم... أنت تعلمين أني

زرت إسرائيل العام المنصرم، للمشاركة في حلقة حوار تحت عنوان: «حوار حول المتوسّط / نساء كاتبات يناقشنَ السلام». ويرغم أني عادةً لا أستحسن تصنيفات من قبيل «نساء كاتبات» أو سواها، ولا أقبل، في العادة، دعواتٍ لها هذا الطابع، فقد جذبني طابع «الحوار حول المتوسّط». وأنتِ تعلمين جيداً كم كان هذا اللقاء مفيداً بالنسبة لي. كانت مناسبةً لمعاينة الخطّ السيني في إسرائيل ولدى النساء أيضاً.

– وللمفارقة، كان من شأن هذه التجربة أن تفضي بك إلى التخلّي عن نظريتك في الين واليانغ... فبذهابك إلى إسرائيل العامَ الفائت، تكونين على الأرجح قد ضيّعتِ فرصتكِ في الذهاب إلى لبنان هذا العام، إذ ليس بإمكانك أن تنالي تأشيرة دخول إلى لبنان إلاّ إذا تخلّصتِ من جواز سفرك الذي يحمل تأشيرة إسرائيلية. سيكون عليك التظاهر بأنك فقدته إلاّ إذا طرأت معجزة وتغيّر الحال بين لبنان وإسرائيل في غضون الأسابيع المقبلة. حسناً، إليك هذا السؤال الذي يتعلّق بالمعايير الأخلاقية : هل تغيّرين جواز سفرك أم لا ؟ هل تتظاهرين بأنّك لم تزوري إسرائيل قط، أو، في الأقلّ على الورق، أم أنك تحتفظين بجوازك بوصفه جزءاً لا يتجزّأ من هويتك ؟ ولكن إذا كنت مصرّة على الاحتفاظ بجوازك، فهذا يعني أنه يحول دون تحقّق الوحدة، في أعماق ذاتك، أنتِ، على الأقلّ، وحدة الين واليانغ للمتوسّط الشرقي. هذه مفارقة غاية في الأهمية، ويعنيني كثيراً أن أرى كيف ستتمكنين من تجاوزها، بكلّ نظرياتك حول توحيد «الأزرق».

– بماذا عسايَ أجيبك، اللهمّ إلاّ بعبارة «سوف نرى»... إنّه نقاشٌ مفتوح، وهو ضَربٌ من النقاشاتِ التي أحبّذها. ونقاشٌ من شأن الحياة نفسها أن تجيب عنه أكثر مني أنا. فهذا الموقف نفسه، والمتمثّل بالرجوع إلى «اللحظة الآنية» هو أحد تعبيرات هذه «الهوية». فبرغم كلّ شيء، ما زال ينتابني شعورٌ بأنّ هوية مثل هذه، موجودة.

حلقة ثانية

– ألم أقل لك إنّ الحياة لطالما كانت أغنى بكثير من الفنّ الدراماتيكي ؟ ولو كان عليّ أن أكتب هذا، لكتبت ما معناه «أية مصادفة دراماتيكية»، وبنبرةٍ ساخرة. ولكن هذا ما جرى بالفعل ! ولقد شهدتِ ذلك بأمّ عينيكِ، كنتِ هناك !

– ليس مستهجناً أن تكوني محظوظة إلى هذا الحدّ... بديهيّ ! لقد سعيتِ وراء عونٍ يأتيك من جغرافيةٍ أخرى : من الين واليانغ، من التاوية بالإضافةِ إلى آلهة المتوسّط القديم قاطبةً، هذا إذا أغفلنا حقبَ التوحيد الثلاث. كلّ تنويعات الإيمان التي تفوق ألوان الطيف عدداً وتألقاً. لا بدّ أنها جميعها تضافرت لخلقِ هذه المصادفة وجعلتكِ تلتقين، بمحض المصادفة، ذلك الشرطي الذي يقرأ كتباً. وليست أية كتبٍ، بل تحديداً كتب نساءٍ كاتبات...

– أتذكرين حين سألك : «في هذه الحال، أنتِ، إذاً، كاتبة ؟»

– من كان ليحسب، نظراً لأسلوبه في التعاطي مع الآخرين في طابور الانتظار، وحتّى من طريقته في طرح السؤال، أنّ الجواب سينتزع ابتسامةً من شفتيه ؟

– ليس جوابك الأول ! لقد بدا أن مزاجك والنبرة اللذين أجبتِ بهما قد أديا، بأية حال، إلى استبعاد مثل هذا الاحتمال.

– كانت تلك هي المرة الثالثة التي أقصد فيها مركز الشرطة ؛ وكنت قد أمضيت ساعاتٍ وأنا أجمع كلّ الوثائق المطلوبة. في اليوم السابق أمضيت ساعاتٍ عبثاً لكي أبلّغ فيما بعد «أن الطلبات لن تقبل» لمناسبة ذكرى وفاة أتاتورك (في العاشر من تشرين الثاني/نوفمبر)، وبعد ذلك أمضيت ثلاث ساعاتٍ لكي أتمكّن من

تقديم أوراقي الثبوتية. وذاك الشرطي بالذات كان متشدّداً مع الجميع، حتّى أنه صاح في وجه المرأة التي كانت أمامي... فهل كنت لأتوقّع أمراً آخر ؟ وكيف كان لي أن أجيب بطريقةٍ مختلفة عندما سألني «ماذا تكتبين ؟».

– «كتباً»، أجبته، كأنك تشتمينه !

– لم أكن راغبةً في شتمِهِ ؛ لكنني شعرتُ بأنه استجواب، بأنّه يستجوبني.

– وهل تغفرين لي إذا قلت إنك كنتِ كأنّكِ تبصقين في وجهه عندما أطلعته على عنوانِ الكتاب ؟

– مهلاً، أنتِ لن تلوميني إذا أخذت بالاعتبار تجربتي مع مسائل الشرطة... خمسة وخمسون يوماً. بعيد قيام نظام الحكم العسكري عام ١٩٨٠، هل تذكرين ؟

– أعفيني، رجاءً، من قصص التعذيب كلّها، والعيون المعصوبة والشحنات الكهربائية وسواها ! طبعاً أذكرها... ولكن هل تكونين منسجمة مع نظرية الفردية خاصتك إذا نظرت إلى «الشرطي» بوصفه فئةً ؟

– طبعاً لا. ولكن ينبغي أن تعترفي بأني سرعان ما تكيّفتُ مع الموقف.

– حتّى أنا صُدِمتُ للأمر، فكيف أصف صدمة الآخرين الواقفين في تلك الردهة سيئة التهوية. لقد حسبنا جميعاً أنكِ ستقبلينه عندما ابتسم وصافحكِ على نحو مباغت.

– إني كائن اللحظة الآنية، صدقيني، واللحظة تعرف كيف تلاقيني... هو ذا المتوسّط، يا عزيزتي ! ما حظّ هذه المصادفة من الوقوع في نور الشمال، في جغرافية هامبورغ، على سبيل المثال ؟ دعيني أروي لكِ هذه الدعابة الرديئة حول «الجحيم»، لكي نعود إلى

سياق حديثنا : يُقالُ إنّه بينما كان مكتب قبول طلبات الدخول إلى الفردوس لا يخضع الناسَ لاستجوابٍ، كما لم يكن الجمع أمامه غفيراً، كان الناس ينتظرون في طوابير لتقبل طلبات دخولهم إلى الجحيم.

– هذا يذكرني، إلى حدّ ما، بطابور الانتظار من أجل الحصول على جواز سفر أمام مركز الشرطة...

– بالضبط، لأن الجحيم هو أيضاً مقسّمٌ على أساس الحدود الوطنية، أو على الأقلّ في هذه القصّة.

– الموظف يسألهم إذاً عند المدخل أي جنسيةٍ للجحيم يفضلون ؟

– بالضبط ! وكان ذاك الجحيم يتميّز بتوزيع... بتوزيعٍ، كيف لي أن أقول ذلك، «النفايات» التي تقدّم على نحوٍ تفاضلي بحسب السياسات الوطنية المختلفة. فوجيء رجلٌ ألماني كان في عداد الطابور برجلٍ تركي يفضّل الجحيم التركي على الجحيم الألماني فسأله «لماذا». لأنّ المقيم في الجحيم التركي يتلقّى، كلّ يوم، على جري العادة، دلواً مملوءاً بالنفايات في حين أن المقيم في الجحيم الألماني يتلقّى كلّ يوم أحد، في الساعة الخامسة مساءً، ملعقةً من النفايات.

– أنا أيضاً كنت لأسأل، بالتأكيد، «لماذا» !

– ليسَ عجَباً إذاً أنكِ «روحي الهامبورغية»... كان السبب بسيطاً، وجاء جواب الرجل التركي على النحو التالي: «يقولون لكَ دلواً كلّ يوم، ولكن يتضح أنهم، في يوم ما، لا يعثرون على الدلو، وفي اليوم التالي تنفد النفايات من عندهم، وفي اليوم الذي يليه يعطونك دلوين لكنّهم ينسونك طيلة أسبوعين تاليين. أمّا في جحيمك أنت، فيمكنك أن تثقَ بأنّك ستتلقّى ملعقتك كلّ يوم أحد في الساعة الخامسة بالضبط، ولذلك سوف تمضي كلّ أيام الأسبوع في

انتظارها، وهو أمرٌ أشبه بالكابوس. ما من مفاجآت، ما من طريقة للمساومة مع القيم على النِفايات، ما من طرافةٍ في أي شيء، أتدرك ما أقول ؟...» وهذا ما جرى بالضبط في حكاية جواز سفري ! من كان ليحسب أني سألتقي ذلك الشرطي بالذات ؟ شرطي يعشق الكتّاب والنساء الكتّاب أكثر من سواهنّ... وفوق ذلك كلّه، شرطي يحمل هاتفاً نقّالاً، أعطاني رقمه، ورجاني أن أطلبه قبل المجيء لسحب الجواز لكي لا أضطرّ للانتظار في طابور مع المنتظرين ؟ تخيّلي ؟ هذا هو المتوسّط ! وهذا ما أعشقه في هذه الهوية.

– تريّثي قليلاً حتّى نهار الجمعة... ريثما تخابرينه... ولا تكوني واثقةً من أي شيء قبل الحصول على جوازك. فما الذي قد يحدث لو صودفَ أن اليوم الموعود الذي ستخابرينه فيه هو يوم «الدلاء الثلاثة» بعد أربعة أسابيعٍ من التقشّف ؟

– إنها نزعة الارتياب الشمالية الصادرة من «الرأس»، بدلَ الإيمان الجنوبي الذي يصدر عن «القلب» ! كلّ ما في الأمر هو أننا سوف نرى.

– ولكن ماذا عن الحلقة الثالثة ؟

– أعتقد أنها ستكون مجملة بعبارة واحدة موجّهة إلى بيروت : «ها إنني هنا، أليس كذلك» ؟

الحواشي

(١) لـعبٌ عـلـى الـكـلام في الـلـغـة الانـكـلـيـزيـة حـول «history»، الـتـاريـخ، و «his story»، قصته، في معنى السرد.

(٢) «Club Med» اسم شهير لوكالة سفريات ورحلات سياحية، لها منتجعات ومرابع سياحية في شتّى أنحاء العالم، وخاصّةً في بلدان حوض البحر المتوسّط (المترجم)

(٣) هـو الـكـاتب التركـي المعـروف أورخـان بـامـوك (مـواليد استـانـبـول، عـام ١٩٥٢)، من أعمـاله المترجمة إلى مختلف لغات العالم : «الكتاب الأسود»، و «الحياة الجديدة»، و «اسمي هو أحمر».

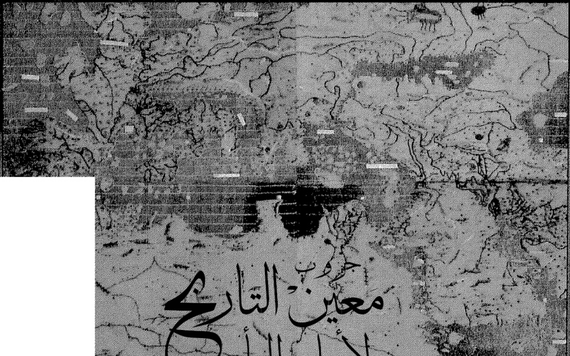
تصوّرات البحر الأبيض المتوسط

بإشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور مايرينغ

عندما نتكلّم على المتوسط، لا نتكلّم على الشيء نفسه إذا نظرنا إليه من إيطاليا أو أسبانيا أو اليونان أو فرنسا أو مصر أو لبنان أو المغرب... ذلك أن تصورات المتوسط بنيت في كلّ مكان من هذه الأمكنة على طبقات تاريخية وثقافية مختلفة. وكان الغرض من هذا العمل «تصوّرات البحر الأبيض المتوسط» هو استكشاف هذه الأنساب المتنوّعة لفكرة المتوسّط.

هذه النصوص ليست سوى نتاج عمل عشرة باحثين وعشرة كتّاب من ضفتي المتوسط هي المغرب وتونس ومصر ولبنان وتركيا واليونان وإيطاليا وأسبانيا وفرنسا وألمانيا مدة سنتين لاستكشاف متخيّل هذه الجماعات أو تلك، والخرائط الذهنية الماثلة، والأصداء التي يوقظها ذكر هذا البحر حيث تلتقي ثلاث قارات، وثلاثة أديان كبرى وتنوّع قلّ مثيله من اللغات والثقافات: المتوسط كبحيرة سلام، أو، على العكس، كأفق لمواجهة محتملة؟ مكان انفتاح أو حدّ انطواء؟ قيم مشتركة أم احتدامٌ للفروق؟ والتساؤل نفسه، من شأنه أن يثير الاهتمام أو الازدراء أو الحذر..

أدهم ألديم هو مدرس مادة التاريخ في جامعة بوغازيشي (استانبول). وقد أثمرت أبحاثه حول وثائق المصرف العثماني عدداً من الإصدارات. فريده تشيتشيكوغلو أصدرت روايتها الأولى «لا تطلق النار على طائرة الورق» (١٩٨٦) التي حازت جائزة الجمهور في كان عام ١٩٨٩. مؤلفاتها تشمل روايات ومجموعاتٍ قصصية ترجمت إلى عدد من اللغات الأجنبية.



ISBN: 9953-422-45-1

3-42

T H A L A S S A